الفصل الثالث

الصنعة فى النثر العباسى

١

النثر العباسى

خلفت الدولة العباسية دولة بنى أمية ، واتخذت بغداد حاضرة لها تاركة شئون الحكم للفرس الذين قضوا قضاء مبرما على الأمويين ، وبذلك أصبحوا هم السادة الحقيقيين . فلم يعد العرب يتصدَّرون مكان السيادة ، ولم تعد لهم أرستقراطيتهم كما كان شأنهم فى العصر الأموى ، فقد أبعدوا غالباً عن المناصب الكبرى فى الإدارة والجيش ، وأصبحوا لا يستطيعون الدخول على الخليفة إلا إذا أذن لهم الموالى من الفرس ، أمثال البرامكة وبنى سَهْل ، ممن أمسكوا بزمام الأمور .

وبذلك عمت الروح الفارسية فى الحياة العباسية ، حتى الخليفة نفسه لم يعد كأسلافه الأمويين يمثِّل شيخاً كبيراً من شيوخ القبائل العربية ، بل أصبح خلفا لملوك الفرس الساسانيين ، فله وزراؤه وحجَّابه وبلاطه ، وله نفس التقاليد الفارسية فى التشريفات ، ويعيش معيشة مترفة ، وإذا كان أبو جعفر المنصور عُرف بالاعتدال فى الاتصال بهذه الحياة الجديدة فإن من خلفوه أقبلوا عليها إقبالا شديدا .

وكان تقدم الفرس على العرب فى شئون الحكم سبباً فى اصطدام هائل بين العرب والموالى ، وسرعان ما ظهرت نزعة الشعوبية [1] ، إذ أخذ جماعة من علماء العجم وأدبائهم يطعنون فى عرب الجاهلية لبعدهم عن أسباب الحضارة

---

(١) انظر الفصل الخاص بهذه النزعة فى الجزء الأول من ضحى الإسلام .

والثقافة ، وطعنوا عليهم أيضاً فى كل ما يتصل بهم من فضائل خلقية ومن خطابة وغير خطابة منوهين بفضائل الفرس وغيرهم من شعوب الحضارات القديمة وما اشتهرت به من عمارة وفنون وعلوم . واتخذ ذلك شكل نزاع ضخم ، فألفت كتب كثيرة فى مثالب العرب ، وكتب أخرى كثيرة فى فضائل الفرس وغيرهم . ومن أشهر هؤلاء الشعوبيين فى العصر العباسى الأول أبو عبيدة معمر بن المثنى وأصله من يهود فارس ، وهو من أشهر العلماء فى اللغة والأخبار ، وكان يتعصب للفرس على العرب ، فألف فى فضائل الأولين كتابا[١] ، أما الأخيرون فألف كتاباً فى مثالبهم[٢] . وشركه فى كتابة المثالب والتأليف فيها الهيثم بن عدىّ[٣] . وممن اشتهر بهذه النزعة سهل بن هرون ، كاتب البرامكة ثم أخذ أصحاب خزانة الحكمة للمأمون . ومنهم عَلّان الشعوبى وكان ورّاقا فى خزانة المأمون ، وقد جمع فى كتابه « حلبة المثالب » جملة المطاعن على القبائل العربية فى زمن الجاهلية[٤] . ولم يقف أنصار العرب صامتين إزاء هذه النزعة ، فقد أخذوا يردون على أصحابها ، ومن أشهر من اضطلعوا بهذا الرد مدافعين عن العرب الجاحظ فى فاتحة الجزء الثالث من البيان والتبيين ، وصنع صنيعه ابن قتيبة فى رسالة له سماها كتاب العرب[٥] .

ترجم الفرس كثيراً من تراثهم إلى العربية[٦] ، ومن أشهر من قاموا بهذا الصنيع عبد الله بن المقفع وآل نوبخت[٧] ، ويخيل إلى الإنسان أنه لم يبق أثر فى اللغة البهلوية إلا ترجم إلى العربية سواء تعلق بتاريخ الساسانيين أو بآدابهم ، ومن ثَمّ بالغ بعض المحدثين فيما كان للثقافة الفارسية من أثر فى العقل العربى ،

---

(١) الفهرست ص ٧٩ — ٨٠ وراجع ترجمته فى إنباه الرواة ٢٧٦/٣ .

(٢) انظر طبقات النحويين واللغويين للزبيدى (طبعة الخانجى) ص ١٩٣ .

(٣) الفهرست ص ١٤٥ ومعجم الأدباء ٣٠٩/١٩ .

(٤) الأغانى (طبع الساسى) ١٥٠/١٢ والفهرست ١٥٣ .

(٥) انظر هذه الرسالة فى كتاب رسائل البلغاء نشر كرد على .

(٦) انظر فى ذلك الفصل الخاص بالثقافة الفارسية فى الجزء الأول من ضحى الإسلام .

(٧) انظر فى النقلة من الفارسية إلى العربية الفهرست ٣٤١ وما بعدها .

ومن الغلاة فى ذلك إنيستَرانسيف ، فقد أكبر فى كتابه « الأثر الإيرانى فى الأدب الإسلامى » من شأن هذه الثقافة وتأثيرها فى العرب معتمداً فى ذلك على ما يحصيه ابن النديم فى فهرسته من أسماء الكتب الفارسية المترجمة ، وهى كثيرة هناك كثرة غامرة ، إلا أن هذه الكثرة يجب أن نحذرها ، فالمسألة مسألة كيف لا كمٌّ ، وربما كانت أهمية هذه الثقافة لا ترجع إلى ما تُرجم للفرس أنفسهم ، وإنما ترجع إلى ما ترجم إلى لغتهم عن غيرها ، فقد كانت وسيطاً مهمًّا فى نقل كثير من آداب الهند ومعارفها مثل كتاب كليلة ودمنة الذى نقله ابن المقفع ، وكذلك كانت وسيطا فى نقل بعض الكتب اليونانية مثل منطق أرسطو الذى ترجمه عبد الله بن المقفع ، أو ابنه[1] ، على أنه ينبغى أن نشير إلى أنه دخل عن طريق الترجمة من الفارسية كثير من تعاليم الفرس الدينية القديمة عند زرادشت ومانى ومزدك ، بل ترجموا كتاب زرادشت المسمى أفستا كما ترجموا كتباً أخرى لمانى ومزدك ، مما كان سببا فى ازدياد جماعة الزنادقة ، وكانوا يتظاهرون بالإسلام ويبطنون أديانهم المجوسية القديمة ، وكانت عين الدولة يقظة فأقام المهدى ديوانا خاصًّا بمحاكمتهم ، وقُتِلَ ابن المقفع وكثيرون غيره . وقد انبرى علماء الكلام ، وخاصة المعتزلة يردون على هؤلاء الزنادقة وما زعموا من إثْنَيْنِية ومذاهب دهرية .

ولا تقل أهمية الثقافة الهندية[2] عن الثقافة الفارسية ، إذ ترجم العباسيون عنها كثيرا من الحكم والقصص ، ومن الفلك والرياضة والطب . وقد ترجم إبراهيم الفزارى للمنصور كتاب الفلك الهندى المعروف باسم « السند هند » يعاونه فى ذلك بعض علماء من الهنود ، واجتلب يحيى بن خالد البرمكى مجموعة من أطبائهم إلى بغداد ، وأمرهم بنقل بعض كتب الطب الهندية ، ويظهر أنه كان هناك مترجمون كثيرون يحسنون النقل عن السنسكريتية ، ومما نقلوه صحيفة فى

---

(١) راجع التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية لعبد الرحمن بدوى ص ١٠١ وما بعدها .

(٢) انظر الفصل الخاص بهذه الثقافة فى الجزء الأول من ضحى الإسلام .

البلاغة احتفظ بها الجاحظ فى بيانه[١] ، ومن المؤكد أن كثيرًا من تأملاتهم فيما بعد الطبيعة أخذ طريقه إلى العربية ، وكان له صداه الواسع فى الصوفية الإسلامية . وقد لعبت نظريتهم فى التناسخ وبعض مذاهبهم الدهرية مثل السُّمَنِيَّة دورًا هى الأخرى فى نزعات الزندقة والإلحاد .

على أن هاتين الثقافتين الهندية والفارسية لا تقاسان فى أهميتهما إلى الثقافة اليونانية[٢] التى دخلت فى العربية لهذا العصر ، وكانت مبثوثة فى مدارس جُنْدَيسابور والرُّها وحَرّان ونَصيبين ، كما كانت مبثوثة فى الكنائس الشرقية والغربية ، وكان للسوريان الفضل الأول فى نقل محتوياتها إلى العربية ، وبدأ ذلك منذ عصر المنصور ، إذ استدعى من جنديسابور أسرة بَخْتيشوع ، ليتولى بعض أطبائها علاجه ، وجَدَّت هذه الأسرة كما جدّ غيرها من السوريان فى ترجمة الفلسفة اليونانية ، وبلغت هذه الترجمة أوجها فى عهد المأمون ، فقد اتخذ فى قصره خزانةَ الحكمة وأخذ يضم إليها كنوز المعرفة العربية والأجنبية ، وشجَّع على النقل والترجمة ، وطلب من آسيا الصغرى ومن بيزنطة نفسها المصنفات اليونانية ، وفى عهده لمع اسم أبى يوسف يعقوب الكندى أول فلاسفة العرب المهمين وأحد العقول الكبرى فى تاريخ العالم .

والذى لا ريب فيه أن هذه الثقافات الدخيلة التى نُقِلَتْ إلى العربية وسَّعت طاقتها ، بما اكتسبت من المعانى العقلية والفلسفية ، وقد أصبح النثر العربى نثر ثقافة متشعبة ، تمدها روافد كبيرة من إيران والهند واليونان ، وليس ذلك فحسب ، فقد أخذت تدخل فى هذا النثر طرائق النظر الأجنبية وأساليب الأجانب فى تفكيرهم ، والذى لا ريب فيه أيضًا أنه قام على هذا العمل نُخْبة من رجال الفكر الذين يحسنون اللغتين المنقول عنها والمنقول إليها فإذا هم يستخدمون أسلوبا مولَّداً جديدًا يحتفظون فيه للعربية بصورتها النحوية والتركيبية. ونحن لا نستطيع أن نقف على مدى إحسانهم فى هذا الأسلوب إلا إذا لاحظنا أن

---

(١) البيان والتبيين ١/٩٢ وانظر زهر الآداب ١/٩٥ .

(٢) انظر الفصل الخاص بهذه الثقافة فى الجزء الأول من ضحى الإسلام .

لغتنا لم يصبها أثناء ذلك شيء من الفساد ، فقد عمدوا إلى تخصيص بعض ألفاظها للدلالة على المصطلحات الفلسفية والعلمية الجديدة ، وكان إذا اضطرهم معنى لفظ أجنبي إلى الاحتفاظ به عرَّبوه ، كما حدث فى أسماء كثير من النباتات والأحجار والعقاقير والأمراض وبعض أسماء الآلات أو أسماء بعض العلوم . وكانوا كثيراً ما يضيفون صيغاً جديدة ، ولكنهم لم يبتعدوا بها عن تراكيب العربية . ومن يقرأ كتب ابن المقفع ، وهو من أوائل المترجمين يرى كيف استطاع أن يُضفى على أساليبه الطوابع العربية تامة كاملة .

وبذلك اتسعت لغة الصحراء ، وأصبحت لغة ثقافية ذات أسلوب مرن يستوعب كل ما لدى الأجانب من كنوز المعرفة ومذاهب الفلسفة مما كان له أثره فى الأدب نثره وشعره ، كما كان له أثره فى العلوم الإسلامية كعلم الكلام والفقه ، وحتى فى علم اللغة نفسه وما اتصل به من علم النحو ، فقد وضع الخليل خطة أول معجم فى العربية وهو «معجم العين» ورتبه على مخارج الحروف بالضبط كما يرتب الهنود حروف لغتهم . وكان يعرف علم الموسيقى ، وعلى هديه أو باستيحائه وضع عروض الشعر وموازينه . ولا ننسى المنطق اليونانى فصلته بالنحو العربى مقررة . ومعنى ذلك أن العلوم المنقولة أثرت فى تلك العلوم اللغوية ، كما أثرت فى جميع العلوم العربية الإسلامية الخالصة ، وليس من باب الاتفاق أن يأخذ فقهاء العراق بالقياس وأن يسموا بأصحاب الرأى . وقد أخذ المؤرخون يكتبون فى التاريخ على ضوء ما قرأوا عند الأمم الأجنبية من كتاباته ، مما أتاح للطبرى أن يكتب موسوعته التاريخية الكبرى .

وعلى هذا النحو أصبح النثر العربى فى العصر العباسى متعدد الفروع ، فهناك النثر العلمى والنثر الفلسفى والنثر التاريخى ، والنثر الأدبى الخالص ، وكان فى بعض صوره امتداداً للقديم ، وكان فى بعضها الآخر مبتكراً لا عهد للعرب به ، على شاكلة ما هو معروف فى كتابات سهل بن هرون والجاحظ . وظلت الخطابة مزدهرة فى أوائل هذا العصر ، وإن كان قد أسرع الذبول إلى الخطابة الحفلية ، إذ لم تعد القبائل تَتَقَدَّمُ بوفودها على الخلفاء كما كان الشأن فى عصر

بنى أمية . أما الخطابة السياسية فظلت فترة نشيطة ، بحكم دعوة بنى العباس لأنفسهم ، حتى إذا استقام لهم الأمر أصابها ما أصاب الخطابة الحفلية من الذبول ، ومن خطبائهم المفوَّهين أبو العباس السفاح والمنصور والمهدى والرشيد والمأمون[١] . ثم غلبت العجمه على خلفائهم ، فلم يعودوا يخطبون فى أيام الجمع والأعياد إلا ما كان من الخليفة المهتدى[٢] (٢٥٥ — ٢٥٦ هـ) وفى أخبار الرشيد أنه عهد إلى الأصمعى أن يحفِّظ ابنه الأمين خطبة يخطب بها الناس فى يوم الجمعة[٣] . أما خطابة الوعاظ فيظهر أنه ظل لها غير قليل من الازدهار ، فقد كان خلفاء بنى العباس يستنُّون بخلفاء بنى أمية فى استقبال كثيرين منهم ، وكان المنصور خاصة يوسع لهم فى مجالسه ، وفى كتب الأدب أطراف من تلك المواعظ ، يُنسَب بعضها إلى شبيب بن شيبة[٤] ، وبعض آخر ينسب إلى عمرو بن عبيد[٥] أو إلى الأوزاعى[٦] أو إلى غيرهم .

وكان المهدى مثل أبيه يستدعى هؤلاء الوعاظ ويستمع إليهم ، ويُرْوَى أن صالح بن عبد الجليل وعظه يوما حتى سالت دموعه[٧] ، وكان الرشيد يقتدى به ، فكان يعظه ابن السمّاك[٨] وغيره . وروى ابن قتيبة فى عيون الأخبار وابن عبد ربه فى العقد الفريد كثيرًا من كلام هؤلاء الوعاظ . وكان وراءهم كثير من القُصّاص الذين يقصون على الناس فى المساجد الجامعة ، ومن أشهرهم موسى ابن سيار الأسْوارى ، وكان من أعاجيب الدنيا ، كانت فصاحته بالفارسية فى وزن فصاحته بالعربية ، وكان يجلس فى مجلسه المشهور به ، فتقعد العرب عن يمينه وتقعد الفرس عن يساره ، فيقرأ الآية من كتاب الله ، ويفسرها للعرب

---

(١) انظر فى خطبهم عيون الأخبار ٢/٢٥١ والعقد الفريد ٤/٩٧ وراجع البيان والتبيين ١/٣٣١ .

(٢) مروج الذهب للمسعودى (طبعة باريس) ٨/٢ .

(٣) الفرج بعد الشدة للتنوخى ٢/٢٠ .

(٤) البيان والتبيين ٢/١٩٨ .

(٥) عيون الأخبار ٢/٣٣٧ والعقد الفريد ٣/١٦٤ وزهر الآداب ١/٩٤ .

(٦) العقد الفريد ٣/١٦٣ وعيون الأخبار ٢/٣٣٨ .

(٧) عيون الأخبار ٢/٣٣٣ والعقد الفريد ٣/١٥٨ .

(٨) العقد الفريد ٣/١٦٤ .

بالعربية ثم يحوّل وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية ، فلا يُدْرَى بأى لسان هو أبين ». ومنهم عمرو بن فائد الذى ظل يفسر القرآن الكريم للناس ستًّا وثلاثين سنة ، وما ختمه حتى مات لأنه كان حافظا للسِّير ولوجوه التأويلات ، فكان ربما فسر آية واحدة فى عدة أسابيع . ومنهم القاسم بن يحيى الضرير الذى لم يكن فى القصاص مثله . ومنهم صالح المُرّى وكان صحيح الكلام شديد التأثير فى سامعيه[١] .

واتسعت فى هذا العصر المناظرات الكلامية ، وحمل لواءها المعتزلة من أصحاب واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد ، ولم يكن همهم أن يردوا على مخالفيهم من الجهمية أصحاب جَهْم بن صفوان الذى كان يقول بالجبر، والمرجئة الذين قالوا بأنه لا يجوز تكفير المسلم ولا الحكم على أعماله ، حتى لو ارتكب كبيرة . لم يكن همهم أن يردوا على هاتين الفرقتين فقط ، بل انصرف همهم إلى الرد على الدهرية والزنادقة ، ونراهم فى عصر المأمون يدعون إلى أن القرآن ليس أزليًّا ، إنما هو مخلوق ، واستطاعوا أن يؤثروا فى المأمون حتى اعتنق فكرتهم وأعلنها عقيدة رسمية للدولة ، وأخذ فى امتحان مَنْ يؤمنون بها فى آفاق دولته ، على نحو ما كان يمتحن جده المهدىُّ الناسَ فى عقيدة المانوية . وتبعه المعتصم فى تلك السيرة ، حتى إذا ولى المتوكل ترك الناس وشأنهم .

ولا نبالغ إذا قلنا إن المتكلمين من معتزلة وغير معتزلة نهضوا بالنثر العباسى نهضة رائعة ، فقد كان المتكلم لا يحسن الكلام والاحتجاج لآرائه إلا إذا أخذ نفسه بثقافة فلسفية واسعة ، يقول الجاحظ : « ولا يكون المتكلم جامعا لأقطار الكلام متمكنًا فى الصناعة ، يصلح للرياسة ، حتى يكون الذى يحْسن من كلام الدين فى وزن الذى يحسن من كلام الفلسفة ، والعالم عندنا هو الذى يجمعهما »[٢] ولم يكونوا يتثقفون بالثقافة الفلسفية وحدها ، بل كانوا يتثقفون أيضًا بكل ضروب الثقافات التى عُرفت لعصرهم ، حتى يجمعوا « التدابير العجيبة ، والعلوم الغريبة ،

---

(١) انظر فى هؤلاء القصاص البيان والتبيين ١/٣٦٨ وما بعدها .

(٢) الحيوان ٢/١٤٣ .

وآثار القول الصحيحة ، ومحمود الأذهان اللطيفة ، والحكم الرفيعة ، والمذاهب القويمة ، والتجارب الحكيمة ، والأخبار عن القرون الماضية والبلاد النازحة والأمثال السائرة »[١] . ويعرّف الجاحظ بقيمة ذلك كله فيقول : « ولولا ما أودعتْ لنا الأوائلُ فى كتبها ، وخلّدتْ من عجيب حكمتها ، ودوّنتْ من أنواع سِيرها ، حتى شاهدنا بها ما غاب عنا ، ونتحنا بها كل مستغلق كان علينا ، فجمعنا إلى قليلنا كثيرهم ، وأدركنا ما لم نكن ندركه إلا بهم لقد خسّ حظنا من الحكمة ، ولضعف سببنا إلى المعرفة . ولو لجأنا إلى قدر قوتنا ومبلغ خواطرنا ومنتهى تجاربنا لما تدركه حواسُّنا وتشاهده نفوسنا لقلّت المعرفة وسقطت الهمة وارتفعت العزيمة ، وعاد الرأى عقيما ، والخاطر فاسداً ، ولكَلّ الحَدُّ وتبلّد العقل »[٢] .

والجاحظ المتكلم لا يعبر بهذا الكلام عن وجهة نظره وحده ، وإنما يعبر عن وجهة نظر المتكلمين جميعاً لعصره ، فقد انكبّوا على قراءة الكتب المترجمة من الفلسفة وغير الفلسفة ، ففتقتْ عقولهم وفتحت لهم مسالك وأبواباً من الفِطَن وقد أقبلوا فى شوق شديد على التثقف بالإسلام وتعاليمه ، وباللغة العربية وكنوزها النثرية والشعرية. ويكفى أن يقرأ الإنسان «البيان والتبيين» للجاحظ وكذلك «الحيوان» ليقف على مدى ثقافته العربية . وهى فى الكتاب الأخير تعانقها ثقافة عامة واسعة .

ولا نقرأ فيما خلفه هؤلاء المتكلمون حتى يبهرنا لَسَنُهم وقدرتهم على الحجاج والإقناع ، وقد كانت المناظرة فى موضوع من الموضوعات تنعقد أحيانا بين اثنين منهم ، فتظل أياماً لا فى أصول الدين ولا فى الرد على الملحدين فحسب ، بل فى كل موضوع يمكن أن يفد إلى أذهانهم . وقد ملأ الجاحظ نحو مجلد من كتابه الحيوان بمناظرة انعقدت بين معبد والنظام فى الكلب والديك أيهما أفضل ، وظلّ يورد أدلةَ كل منهما فى صورة رائعة ، وهى صورة تدل دلالة بينة على مدى ما أصابه هؤلاء المتكلمون من تنويع لأفكارهم وتصحيح لمقدماتهم

---

(١) الحيوان ١/٤٢ .

(٢) الحيوان ١/٨٥ .

وتصريف لأساليبهم وألفاظهم . وإذا كانت القدرة البيانية بلغت باثنين منهم هذا المبلغ فى مساوئ الديك ومحاسنه ومنافع الكلب ومضاره ، فما بالك بما كان يجرى بينهم فى مسائل الدين واستقصاء كل مسألة وجمع معانيها وترتيب أفكارها وألفاظها ؟ ومن يقرأ ما يرويه الجاحظ عن النّظام فى كتابه الحيوان يَعْجَبُ أشد العجب من استنباطه للمعانى والأدلة ، سواء تحدث فى الحيوان أو فى الرد على الدهرية والمانوية أو على خصومه من المتكلمين أو فى بيان نظرياته فى الروح والحواس والتولد والجسم والعرض والخير والشر والاستطاعة والكمون والتداخل والحركة والسكون . ويُشيد به الجاحظ فى غير موضع من حيوانه ، ومن قوله فيه وفى المتكلمين : « إنه لولا مكان المتكلمين لهلكت العوامُّ من جميع الأمم ، ولولا مكان المعتزلة لهلكت العوام من جميع النِّحل . . ولولا أصحاب إبراهيم (النظّام) وإبراهيم لهلكت العوام من المعتزلة ، فإنه قد أنهج لهم سبلا ، وفتق لهم أموراً ، واختصر لهم أبوابا ، ظهرت فيها المنفعة ، وشملتهم بها النعمة »[1] وقال فى موضع آخر : « كان إبراهيم مأمون اللسان قليل الزلل والزَّيْغ . . وإنما كان عَيْبه الذى لا يفارقه ... جودة قياسه على العارض والخاطر والسابق الذى لا يوثق بمثله »[2] فهو يأخذ عليه أنه كان لا يصحح مقدمات القياس . وأكبر الظن أنه إنما كان يلجأ إلى ذلك حين تعوزه الحجة ، فكان يراوغ ويعتلُّ ، حتى يشكك خصمه وسامعيه ، وكان يذهب هذا المذهب نفسه خاله أبو الهُذيل العلاَّف ، وكان يقول : خمسون شكًّا خير من يقين واحد[3] أما النظام فكان يقول : لم يكن يقين قط حتى كان قبله شك ، ولما قال أبو الجهم للمكى : أنا لا أكاد أشك قال المكى : وأنا لا أكاد أوقن ، وكانوا يقولون : « العوامُّ أقل شكوكًا من الخواصّ ، لأنهم لا يتوقفون فى التصديق والتكذيب ولا يرتابون بأنفسهم ، فليس عندهم إلا الإقدام على التصديق المجرد أو على التكذيب المجرد ، وألغوا الحال الثالثة من الشك التى تشتمل على طبقاته »[4] .

---

(١) الحيوان ٤/٢٠٦ .
(٢) الحيوان ٢/٢٢٩ .
(٣) الحيوان ٣/٦٠ .
(٤) الحيوان ٦/٢٥ وما بعدها .

لم يعد هناك شيء لايقبل الشك والجدل فى هذه البيئة التى استطاعت حقاً أن تمرن اللغة العربية على أداء معان لم تتعود أداءها ، وإنك لتقرأ كلامها فلا تشعر بأى تكلف أو شفقة أو التواء أو عُسْر ، فقد أصبحت اللغة طيعة على ألسنتهم ، وأصبحت مرنة مرونة عجيبة ، سواء تكلموا فى مسائل فلسفية عويصة أو فى مسائل كلامية دقيقة ، وتحس حقاً كأنهم بحار تتدفق فلا تعثر ولاتوقف . وقد وقف الجاحظ فى البيان والتبيين يُشيد إشادة رائعة ببلاغتهم [١] ، وعرض لأحدهم ، وهو ثُمامة بن أشْرس فوصفه بقوله : « ما علمت أنه كان فى زمانه قَرَوِىّ ولا بَلَدىٌّ كان بلغ من حُسْن الإفهام مع قلة عدد الحروف ولا من سهولة المَخْرج مع السلامة من التكلف ما كان بلغه . وكان لفظه فى وزن إشارته ومعناه فى طبقة لفظه ، ولم يكن لفظه إلى سمعك بأسرع من معناه إلى قلبك ، وقال بعض الكُتّاب : معانى ثُمامة الظاهرة فى ألفاظه ، الواضحة فى مخارج كلامه ، كما وصف الخُرَيْمى شعرَ نفسه فى مديح أبى دُلَف ، حيث يقول :

له كَلِمٌ فيك معقولةٌ إزاء القلوب كركْبٍ وُقوف » [٢]

وهذا الوصف الذى وصف به الجاحظ ثمامة ينطبق على كل متكلم فى عصره ، فقد مرنوا على الجدال ومكايلة الألفاظ وموازنة المعانى وعرضها بخفيات حدودها ودقائقها ، والحوار فيها والجدال ومحاولة إقناع الخصم وإسكاتهم وبلغوا من ذلك كل مبلغ ، حتى سُمُّوا المتكلمين فهم أرباب الكلام وأصحابه الذين يعرفون كيف ينصبون أنفسهم للدفاع عن آرائهم ، وكيف يقدمون البراهين الواضحة والحجج الصحيحة .

واقرأ فى كتاب الحيوان للجاحظ فلن تجد موضوعا إلا خاضوا فيه واستخرجوا منه معانيه ، حتى لتظن أنه لم يكن هناك أديب بارع إلا وتستهويه تلك الجماعة وتجذبه إلى ميادينها ، ليبحث فى الأسباب الكونية ومسبباتها والعلل ومعلولاتها ، ويدخل فى صفوف هؤلاء الذين ملأوا قلوب الناس إعجابا بمناظراتهم ومجادلاتهم

(١) البيان والتبيين ١/١٣٩ .
(٢) البيان والتبيين ١/١١١ .

التى اتسعت لكل جوانب المعرفة ديناً وغير دين .

وقد دعتهم رغبتهم فى إحكامهم لمناظراتهم ومناقشاتهم أن يبحثوا بحثاً واسعاً فى بلاغة الكلام وكيف يبلغ المتكلم بكلامه الكفاية وغاية الحاجة ، بل كيف يروع السامعين ببيانه وحلاوة ألفاظه وحسن مخارج حروفه ، حتى تسكن القلوب إليه وتثلج الصدور . ويزخر كتاب البيان والتبيين بوصاياهم التى كانوا يسوقونها إلى تلاميذهم فى مجالسهم ، وكثيراً ما كانوا يَدْعون هؤلاء التلاميذ إلى المناظرة بين أيديهم ، ليمرنوهم ويُدَرِّبوهم ، وليروا مقدار براعتهم ، وهم أثناء ذلك يبدون ملاحظات مختلفة على إشاراتهم وحركاتهم وأصواتهم وعلى ألفاظهم وأقوالهم وأساليبهم وعلى براهينهم وأدلتهم وأقيستهم وعللهم وما يداخل ذلك كله من فلتات خطإ وسقطات وهم . وبذلك كانوا أول من وضع قواعد البيان العربى ، وقد أخذوا أثناء هذا الوضع يحاولون الاطلاع على ما عند الأجانب من هذه القواعد ، يقول الجاحظ فى بيانه : « قيل للفارسى : ما البلاغة ؟ قال معرفة الفصل من الوصل ، وقيل لليونانى ما البلاغة ؟ قال : تصحيح الأقسام واختيار الكلام ، وقيل للرومى ما البلاغة ؟ قال : حسن الاقتضاب عند البداهة والغزارة يوم الإطالة ، وقيل للهندى ما البلاغة ؟ قال : وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة ، وقال بعض أهل الهند : جُمّاع البلاغة البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة ، ثم قال : ومن البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة أن تدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها ، إذا كان الإفصاح أوعر طريقة ، وربما كان الإضراب عنها صفحاً أبلغ فى الدرك وأحق بالظفر »[1] . ويقول الجاحظ إن معمّراً المتكلم قال لبهْلة الهندى ما البلاغة عند أهل الهند ؟ قال بهلة عندنا فى ذلك صحيفة مكتوبة ، ولكن لا أحسن ترجمتها ولم أعالج هذه الصناعة فأثق من نفسى بالقيام بخصائصها وتلخيص لطائف معانيها . ويَلْقَى معمر بالصحيفة التراجمة فإذا فيها : « أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة ، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجَأش ساكن الجوارح ، قليل اللحظ ، متخير اللفظ ، لا يكلم سيد

---

(١) البيان والتبيين ١ / ٨٨ .

الأمة بكلام الأمة ولا الملوك بكلام السوقة . ويكون فى قواه فضلُ التصرف فى كل طبقة . . وممن قد تعود حذف فضول الكلام وإسقاط مشتركات الألفاظ وقد نظر فى صناعة المنطق على جهة الصناعة والمبالغة لا على جهة الاعتراض والتصفح ، وعلى وجه الاستطراف والتطرّف . . ويكون لفظه مونقاً ، ولهول تلك المقامات معاوداً . ومدار الأمر على إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم ، وللحَمْل عليهم على أقدار منازلهم »[1] .

ومعنى ذلك كله أن المتكلمين لم يكتفوا بملاحظاتهم الشخصية فى بلاغة الكلام ، بل طلبوا ما عند الأجانب ، ويلحُّ الجاحظ وغيره منهم على فكرة مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، وهى صريحة فى الصحيفة الهندية ، وأغلب الظن أنها تسربت إليهم أيضا فى بعض ما تُرجم لأفلاطون من محاورات أو لأرسطاليس من كلام فى الخطابة ، وربما سمعوها من المسيحيين السريان الذين كانوا يكثرون من جدالهم . ويحدثنا الجاحظ أن بشر بن المعتمر مرّ بإبراهيم بن جبلة وهو يعلّم بعض الفتيان الخطابة ، فدفع إليه بصحيفة من تحبيره[2] ، تجمع قواعد البلاغة وكيف يحسن الخطيب فى خطابته ، متحاشياً التوعر وجالبا الألفاظ التى تروق السامع ، وقد بنيت الصحيفة على فكرة مطابقة الكلام لمقتضى الحال وأن واجب الخطيب أن يلائم بين موضوعه ومعانيه وبين ظروف السامعين ، فإن إحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال ، فلا يكلم الخاصة بكلام العامة ولا العامة بكلام الخاصة ، بل يعرف أقدار المعانى ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وأقدار الحالات ، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً يلائمها ، حتى تفهم عنه ، وحتى يصل إلى ما يريد من استحالتها بلطف مداخله وعذوبة ألفاظه .

ونفذوا فى أثناء هذه الوصايا إلى وضع كثير من مصطلحات البيان العربى ، ومن يرجع إلى الحيوان والبيان والتبيين يجد اصطلاحات التشبيه والحقيقة والمجاز

---

(١) البيان والتبيين ١/٩٢ .

(٢) البيان والتبيين ١/١٣٥ وما بعدها .

والاستعارة والكناية والالتفات وحسن الخروج والاعتراض وتأكيد المدح بما يشبه الذم والإيجاز والإطناب والاقتباس ، كل ذلك يدور فيهما ، وقد وقف الجاحظ طويلا فى فاتحة البيان عند فصاحة الألفاظ وتنافر الحروف وصنوف اللثغة فيها . فإذا قلنا إن هذه البيئة هى التى وضعت قواعد البلاغة والفصاحة لم نكن مبالغين ، وإذا قلنا أيضاً إن هذه البيئة هى التى أتاحت للغة العربية مرونة الأساليب على أداء المعانى الدقيقة لم نكن مغالين ، بل إننا نقول إنها هى التى وضعت نماذج التعبير العباسى البليغ ، فقد كانت تَنْفى الألفاظ المتوعرة الوحشية عن كلامها كما كانت تنفى الساقط السوقى ، فاختارت بذلك لغة متوسطة تقوم على الألفاظ الرشيقة ذات المخارج السهلة ، كما تقوم على ضرب من التلاؤم الموسيقى هو نفسه الذى لاحظناه قبلا عند أسلافها من وعاظ العصر الأموى ، والذى يكسو الكلام كسوة الازدواج والترادف الصوتى البديع .

وكان كبار الأدباء فى القرن الثانى جميعه يتخذون هذا الأسلوب الفصيح الوسَطَ إمامهم ومثلهم ، سواء أكانوا مترجمين مثل ابن المقفع أم مدبِّجين لرسائل أدبية طريفة مثل سهل بن هرون ، وقد بلغ القمة التى كانت تنتظره عند الجاحظ المتكلم ، وهو أسلوب كان يوازن موازنة دقيقة بين طرافة المعانى وإثارة الجمال فى نفس القارئ والسامع ، ولكن بدون كَدٍّ ومجاهدة ، ولذلك نسلك أصحابه فى مذهب الصنْعة ، فهم لا يبالغون فى تكلفهم ولا يستدعون الألفاظ من بعيد ولا يدققون فيها كل التدقيق ولا يصفُّونها كل التصفية .

وبينما كان هذا المذهب قائماً عند المتكلمين وكبار الأدباء والمترجمين كانت طلائع مذهب ثان من التصنيع والتجميل تأخذ طريقها فى بيئة الكُتَّاب الرسميين من أصحاب الدواوين ، فقد أخذوا يهذبون لغة رسائلهم السياسية غاية التهذيب ، وما زالوا يبالغون فى أناقة تعبيرهم ودقة أذواقهم ، حتى انفصلوا انفصالا تاماً عن أسلوب الازدواج إلى أسلوب كله قطع زخرفية أنيقة ، أو بعبارة أخرى أسلوب كله سجع وتنميق . وسنعرض لهذا المذهب فى موضع آخر أما الآن فنُعْنَى بأهمِّ من نَمَّوا مذهب الصنعة فى العصر العباسى بتأثير الثقافات الأجنبية الدخيلة ،

وهم ابن المقفع وسهل بن هرون والجاحظ وكان أولهم مترجماً ، أما سهل والجاحظ فكانا أديبين يعنيان بكتابة الرسائل والكتب الأدبية ، ولعلهما من أجل ذلك كانا يهتمان بفنهما وتجويد أساليبهما أكثر من اهتمام ابن المقفع، إذ كان اهتمامه ينصبُّ غالباً على ما يترجمه ونقل معانيه، لا على طريقة الأداء والتحبير فيه.

٢

ابن المقفع : أصله وحياته وزندقته

ابن المقفع فارسى الأصل ، اسمه رُوزْبه[١] بن داذُويه ، كان أبوه من قرية تسمى جور[٢] من أعمال فارس على مقربة من شيراز . وانتقل إلى البصرة ، والتحق بديوان الخراج لعهد الحجاج ، فاحتجن (اختلس) مالا ، فضربه الحجاج حتى تقفَّعت (يبست) يده ، فلُقِّب بالمقفع[٣] ، ولم يسلم ، بل استمر مجوسيًّا مانويًّا ، وعلى دينه نشأ ابنه روزبه ويظهر أنه عُنى بتأديبه كما عُنى بتعليمه العربية ، وساعده على ذلك أن ولاءهما كان فى آل الأهتم ، وهم يشتهرون بالفصاحة من قديم[٤] .

ولم يمض زمن كبير حتى ظهرت مخايل الفصاحة والبلاغة على ابن المقفع ، فكتب لعمر بن هبيرة فى دواوينه على كرمان[٥] بفارس ، ثم كتب لابنه يزيد حين ولى العراق من قِبَل مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، كما كتب لأخيه داود[٦] . وجعلته وظيفته تلك يفيد أموالا ، كان يَبَرّ بها طائفة من أصدقائه ، يقول الجهشيارى : « وكان سريًّا سخيًّا ، يطعم الطعام ، ويتسع على كل من احتاج إليه . . وكان يُجرى على جماعة من وجوه أهل البصرة والكوفة ما بين

---

(١) الفهرست ص ١٧٢ .
(٢) الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ١٠٩ .
(٣) الفهرست ص ١٧٢ .
(٤) البيان والتبيين ١ / ٣٥٥ .
(٥) الوزراء والكتاب ص ١٠٩ .
(٦) الفهرست ص ١٧٢ .

الخمسمائة إلى الألفين فى كل شهر»[١] .

ولما قامت الدولة العباسية كتب لعيسى بن على عم المنصور[٢] ، وعلى يديه أعلن إسلامه وتسمى باسم عبد الله واكتنى بأبى محمد[٣] ، ويقال إنه حين حاول إعلان إسلامه سأله عيسى أن يؤجل ذلك إلى الغد ، حتى يكون ذلك فى حفل يحضره القواد والرؤساء ، ثم حضر طعامُ العشاء ، فجلس يأكل ويزمزم على عادة المجوس ، فقال له عيسى أتصنع ذلك وأنت على عَزْم الإسلام ؟ فقال : أكره أن أبيت على غير دين ! وظل يعمل فى خدمة عيسى حتى قتله سفيان بن معاوية والى البصره من قبل المنصور. وهنا يختلف الباحثون فى سبب قتله ، فيزعم قوم أنه قُتل لزندقته ، ويؤكد الجهشيارى وكثير من المؤرخين أن السبب فى قتله ما كان من تشدده فى كتابة الأمان الذى كتبه لعبد الله بن على أخى عيسى وعم المنصور فإنه حين فشلت ثورته على ابن أخيه هرب منهزما من أبى مسلم الخراسانى وقصد أخويه عيسى وسليمان بالبصرة ، فكاتبا المنصور فى أن يؤمنه ، ورضى بإعطائه الأمان ، فأمر عيسى ابنَ المقفع بعمل نسخة لهذا الأمان ، فعملها ووكّدها واحترس من كل تأويل يجوز أن يقع عليه فيها . . . وكان الذى شق على أبى جعفر ما جاء فى أسفل الأمان من أنه إذا غدر بعمه عبد الله فهو نفِىّ من أبيه ومولود لغير رِشْدة ، وقد حلّ لجميع أمة محمد خلعه وحربه والبراءة منه ، ولا بيعة له فى رقاب المسلمين ولا عهد ولا ذمة ، وقد وجب عليهم الخروج من طاعته وإعانة من ناوأه من جميع الخلق ، وأنه إن فعل كان كافراً بجميع الأديان ، ونساؤه طوالق وعبيده أحرار . فغضب المنصور حين قرأ هذا الأمان وسأل عن كاتبه ، فقيل له : ابن المقفع ، فقال : أما أحد يكفينيه ؟ وكتب فيه إلى سفيان بن معاوية ، وتصادف أن كان يضطغن عليه ، فاستغل الفرصة وطلبه ، فلما قدم عليه أمر بتنُّور فسُجر، ثم أخذ يقطعه عضواً

---

(١) الوزراء والكتاب ص ١٠٩ . ص ١٠٢ .

(٢) الفهرست ص ١٧٢ والوزراء والكتاب . (٣) الفهرست ص ١٧٢ .

عضواً ويرمى به فى التنور[١] . وأكبر الظن أن هذا هو السبب الصحيح فى مقتل ابن المقفع ، فالجاحظ يقول فى بعض رسائله إنه أغرى عبد الله بن على بالمنصور فقُطن له ، وقُتل[٢] ومن المحقق أن الجاحظ لا يريد بإغرائه سوى ما كان من كتابة أمانه على هذا النحو الذى ضيّق فيه على المنصور ، ويقول ابن خلكان إن ذلك كان عام ١٤٢ أو ١٤٣ أو ١٤٥ . ومعنى ذلك أنه لم يعش فى الدولة العباسية إلا نحو عشر سنين .

واشتهر ابن المقفع بأنه كان زنديقاً ، وأنه إنما اتخذ الإسلام قناعاً لزندقته ومانويته ، وممن أكد ذلك أبو الفرج الأصبهانى[٣] والبيرونى[٤] وابن خلكان[٥] وصاحب خزانة الأدب[٦] . ويقول المرتضى فى أماليه : رُوى عن المهدى أنه قال : « ما وجدت كتاب زندقة إلا وأصله ابن المقفع »[٧] ويقول المسعودى : « أمعن المهدى فى قتل الملحدين لظهورهم فى أيامه وإعلانهم باعتقاداتهم فى خلافته ، لما انتشر من كتب مانى وابن ديصان ومرقيون مما نقله عبد الله بن المقفع وغيره وتُرجم من الفارسية والفهلوية إلى العربية »[٨] . وفى الفهرست أنه ترجم كتاباً فى سيرة مزدك[٩] ، ويقال إنه مرّ ببيت نار للمجوس بعد أن أسلم فلما رآه تمثّل :

يا بيتَ عاتكةَ الذى أتعزّلُ حذَرَ العدا وبك الفؤادُ موكّلُ
إنى لأمنحك الصُّدود وإننى قسَماً إليك مع الصدود لأميَلُ[١٠]

ويقول بعض الرواة إنه عارض القرآن بزعمه[١١] . ونشر ميكائيل أنجلو جويدى سنة ١٩٢٧ كتابا يسمى : « كتاب الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع —

(١) الوزراء والكتاب ص ١٠٣ وما بعدها .
(٢) ثلاث رسائل للجاحظ (طبعة فنكل) ص ٤٧ .
(٣) أغانى (طبعة الساسى) ١٨ / ٢٠٠ .
(٤) تحقيق ما للهند من مقولة (طبعة ليبزج) ص ٧٦ .
(٥) انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ / ١٥٠ .
(٦) خزانة الأدب للبغدادى ٣ / ٤٥٩ .
(٧) أمالى المرتضى ١ / ١٣٤ .
(٨) مروج الذهب للمسعودى (طبعة مصر) ٤ / ٢٤٢ .
(٩) الفهرست ص ١٧٢ .
(١٠) أمالى المرتضى ١ / ١٣٥ .
(١١) إعجاز القرآن للباقلانى ص ١٨ .

عليه لعنة الله — للقاسم بن إبراهيم عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم » ونرى القاسم يندّد — فى مقدمة هذا الكتاب — بمذهب مانى وأتباعه ويقول إن ابن المقفع : خلّفه فى إفكه وضلاله « فوضع كتاباً أعجمى البيان ، حكم فيه لنفسه بكل زور وبهتان ، فنال من عيب المرسلين ، وافترى الكذب على رب العالمين ، فرأينا من الحق أن نضع نَقْضه ، بعد أن وضعنا من قول مانى بعضه » . ثم يعرض القاسم فِقَراً من أقوال ابن المقفع ويردُّ عليها . وقد شك بعض الباحثين فى هذا الكتاب ونسبة ما فيه من آراء لابن المقفع [١] ، غير أن ذلك لا ينقص زندقته فقد شهد بها معاصروه ومن جاءوا بعدهم . ويُروَى أنه لما قُتل ابن أبى العوجاء لزندقته رثاه بقوله :

رُزئنا أبا عمرو ولا حىَّ مثلُه ... فلله رَيْب الحادثات بمن وقَعْ
فإن تك قد فارقتَنا وتركتنا ... ذوى خَلَّة ما فى انسداد لها طمع
فقد جَرَّ نفعاً فقدُنا لك أننا ... أمِنّا على كل الرزايا من الجزَعْ

وقال أحمد بن يحيى ثعلب : البيت الأخير يدل على مذهبهم فى أن الخير ممزوج بالشر والشر ممزوج بالخير [٢] .

وعلى الرغم من زندقة ابن المقفع وتعصبه الشديد لفارسيته لم يفكر فى الرجوع إلى لغته ، بل اتخذ العربية مثله الأعلى ، وكان ذكيًّا ذكاء شديداً ، ولكن ذكاءه أضلّه . وكان دقيق الحس ، فقد دعاه عيسى بن على للغداء معه يوماً فقال له : « أعز الله الأمير ! لست يومى للكرام أكيلا ، فقال له : ولِمَ ؟ قال : لأنى مزكوم ، والزكمة قبيحة الجوار ، مانعة من عِشْرة الأحرار » . وكتب إليه يحيى بن زياد الحارثى الزنديق يلتمس عقد الإخاء والاجتماع على المودة والصفاء فأخّر جوابه ، فكتب إليه كتاباً آخر ، يستريثه ، فكتب إليه ابن المقفع : « إن الإخاء رِقٌّ ، فكرهت أن أملّكك رِقّى قبل أن أعرف حُسْنَ مِلْكتك » [٣] .

---

(١) ضحى الإسلام لأحمد أمين ١/٢٢٥ .
(٢) أمالى المرتضى ١/١٣٥ .
(٣) انظر فى هذا النص وسابقه أمالى المرتضى ١/١٣٦ .

٣

صنعة ابن المقفع فى كتبه ورسائله

رأينا ابن المقفع يعمل فى دواوين الحكام والأمراء ، ولكن أهميته لا ترجع إلى أنه كان كاتباً من كتّاب الدواوين ، وإنما ترجع إلى أنه كان مترجماً عن البهلوية ، إذ حاول أن ينقل إلى اللغة العربية خير ما عرفه فى لغته الفارسية سواء أكان ما عرفه فيها فارسيًّا خالصاً أم كان يونانيًّا أم كان هنديًّا .

أما الفارسى الخالص فمنه ما يرد إلى تراث القوم الدينى ، وقد ترجم منه كتاب مزدك[١] ، ومنه ما يُرَدُّ إلى تراثهم التاريخى والأدبى ، وهو تراث كان يدور فى أغلبه حول البلاط الإيرانى وحَوْلياته وتقاليده ، ومن هذا التراث ترجم كتاب « خُدَاى نامه » فى سِير ملوكهم ، وقد اعتمد الفردوسى على هذا الكتاب فى تأليف ملحمته « الشهنامة » . وأيضا ترجم كتاب « آيين نامه » وهو فى أنظمة الملك والدولة الساسانية ، وقد بقيت منه مقتطفات كثيرة فى عيون الأخبار لابن قتيبة تدل على أنه كان يعالج نظام القضاء وفنون الحرب ومكايدها . وترجم أيضاً كتاب التاج فى سيرة أنوشروان ورسالة تنسر وكل هذه الكتب — على ما يظهر — كانت كتباً رسمية أصدرها البلاط الساسانى.

وترجم بجانبها بعض ما نقل إلى لغته من التراث اليونانى ، إذ يقولون إنه ترجم لأرسطو المقولات [٢] وبجانب ذلك نجده يترجم قصص كليلة ودمنة ، وهى قصص ترجع إلى أصول هندية . وقد عثر هرتل (Hertel) على أحد أصول هذه القصص ، وهو كتاب « بَنْجَ تَانْتَرا » الهندى كما عثر غيره على أصل آخر هو كتاب « هتو پادشا » ووجد الباحثون فى « المهابهارتا »

---

(١) انظر فى الكتب الفارسية التى ترجمها ابن المقفع كتاب الفهرست ص ١٧٢ .

(٢) الفهرست ص ٣٤٨ وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة (طبع المطبعة الوهبية) ١/٣٠٨ .

بعض أصول منه [١] . ويرجح بعض الباحثين أن ابن المقفع زاد على الكتاب فصولا لم تكن فى الأصل ، وكذلك زاد بعض القصص ، ويمكن أن تكون القصص المزيدة ليست من صنعه ، فقد تُرجم الكتاب بعده مرة أخرى وزيدت فيه بعض زيادات [٢] ، ومن المحقق أنه لم يزد سوى ما سماه غرَض الكتاب ، أما ما يزعمه البيرونى من أنه زاد باب برزويه « قاصداً تشكيك ضَعَفَى العقائد فى الدين وكَسْرهم للدعوة إلى مذهب المانية وإذا كان متهماً فيما زاد لم يخل عن مثله فيما نقل » [٣] فغير صحيح ، إذ كان هذا الفصل موجوداً فى الأصل الفارسى [٤] . على أن ما قاله البيرونى يلفتنا إلى أن الفرس استخدموا الكتاب بعد نقله وقبل ترجمته إلى العربية فى الدعوة لمذهب المانوية .

وليس ذلك كل ما نقله ابن المقفع عن البهلوية ، فله رسائل أخرى أشهرها الأدب الكبير والأدب الصغير واليتيمة ورسالة الصحابة . ونراه يصرِّح فى مقدمة الأدب الكبير بقوله : « منتهى علم عالمنا فى هذا الزمان أن يأخذ من علمهم (يريد القدماء) وغاية إحسان محسننا أن يقتدى بسيرتهم . . . ومن ذلك بعض ما أنا كاتبٌ فى كتابى هذا من أبواب الأدب التى يحتاج إليها الناس » وكثيراً ما يقول فى هذا الكتاب : « احفظ قول الحكيم » أو « قالت الحكماء » . ويقول فى مقدمة الأدب الصغير : « وقد وضعت فى هذا الكتاب من كلام الناس المحفوظ حروفاً فيها عَوْنٌ على عمارة القلوب وصِقالها وتجلية أبصارها وإحياء للتفكير وإقامة للتدبير ودليل على محامد الأمور ومكارم الأخلاق » . فالكتابان بشهادته مترجمان ، أو على الأقل تغلب الترجمة عليهما ، وقد دار أولهما على السياسة والصداقة ، ودار ثانيهما على الشِّيَم والأخلاق. وتدخل فى هذه المعانى القطع الباقية من اليتيمة ، التى احتفظ بها ابن طيفور فى كتابه المنظوم والمنثور . فالكتب الثلاثة فى رأينا مترجمة على الأقل فى أكثرها ، وهى تصور ضرباً من

---

(١) انظر مقدمة كليلة ودمنة لعبد الوهاب عزام (طبعة دار المعارف) ص ٣٥ وما بعدها .

(٢) نفس المقدمة ص ٤٢ .

(٣) تحقيق ما للهند من مقولة للبيرونى ص٧٦.

(٤) مقدمة كليلة ودمنة ص ٤٤ وما بعدها .

الأدب الأخلاقى نما فى بلاط الساسانيين ، كان يُرْوَى عن بزرجمهر وغيره ، وكان يراد به تثقيف الفرس بحكمة عملية خلقية تستمد من تجارب الحياة وتكفل للإنسان أن يعيش فى العالم سعيداً بعيداً عن المضار . وتدخل فى هذا الضرب من الأدب الأخلاقى رسالة الصحابة ، وهى لا تتصل بتعليم الناس كيف يعيشون ، وإنما تتصل بنظام الدولة ، فالصحابة فى هذه الرسالة إنما يراد بهم صحابة الحكام والملوك أو كما نقول الآن حاشيتهم وجنودهم ورعيتهم ، فهى تعرض لسياسة الدولة العامة ، وقد يكون ابن المقفع زاد عليها تطبيقا لأحوال الرعية الإسلامية والدولة العباسية ، ولكنه على كل حال استمد فى هذه الرسالة من أنظمة الملك الساسانية .

وعلى هذا النحو حمل ابن المقفع إلى العرب والعربية أروع ما أنتجته العبقرية الإيرانية قبل الإسلام ، مما كان له أثر كبير فى الآداب العباسية ، سواء منه ما اتصل بالأخلاق ، وما اتصل بتاريخ الساسانيين ومن سبقوهم من ملوك إيران ، وكذلك ما اتصل بأنظمة ملكهم وحكمهم للرعية . ولم يكتف بذلك فقد نقل أيضاً أجزاء من منطق أرسطو كما نقل قصص كليلة ودمنة ، وعنه نُقلت إلى السريانية والعبرانية واليونانية والفارسية الحديثة كما نقلت إلى اللغات الأوربية .

والطريف أنه حين قام بنقل هذا كله إلى لغتنا العربية لم تستعصِ عليه تلك اللغة ، بل أظهرت من المرونة ما استطاعت به أن تحمل هذا التراث كله ، ومن غير شك كانت كثرته إن لم يكن كله جديدة عليها بمعانيها ومدلولاتها التى لم يكن يعرفها عرب الصحراء ، ولا نريد أن نبالغ فنقول إن ابن المقفع أصاب التوفيق فى كل ما ترجم ، إذ يظهر أن ترجمته لمنطق أرسطو أو لأجزائه لم تكن موفقة كل التوفيق ، ومن ثَمَّ حمل عليه الجاحظ فى ترجمته لمعانى أرسطو [١] . ومن الحق أن ترجمة هذا المنطق لا تعدُّ مقياساً عامًّا لترجمته ، إذ كلنا نعرف صعوبة ترجمة الفلسفة ، فما بالنا إذا كانت هذه الترجمة تصاغ لأول مرة . وعلى

---

(١) الحيوان ١/٧٦ .

كل حال إذا كان التوفيق قد أخطأه فى ترجمة أرسطو فإنه لزمه فى ترجمة كليلة ودمنة وما ترجمه من تراث الأدب الفارسى .

وربما كانت حملة الجاحظ عليه فى ترجمته لمنطق أرسطو هى التى دفعت طه حسين إلى حملته على أساليبه حملة عامة ، فذهب يقول إن « له عبارات من أجود ما نقرأ فى العربية ، وبنوع خاص فى الأدب الكبير وفى كليلة ودمنة ، ولكنه عندما يتناول المعانى الضيقة التى تحتاج إلى الدقة فى التعبير يضعف ، فيكلف نفسه مشقة ويكلف اللغة مشقة » ويشبهه بالمستشرقين الذين يحسنون اللغة العربية فهماً ، وربما أعياهم الأداء فيها ، وينصح لطلاب الأدب أن يحتاطوا عندما يريدون أن يتخذوا ابن المقفع نموذجاً للتعبير والبلاغة ، ويسوق دليلا على حكمه بعض أمثلة قليلة ، نلاحظ فى تضاعيفها اضطراباً فى الضمائر . وكأنما فاته أن آثار ابن المقفع مضى عليها أكثر من ألف عام ، قبل أن تطبع ، كانت تتداولها فيها أيدى الناسخين الجانية ، وأن ما لاحظه ربما رجعت آفاته إلى أصناف هؤلاء الناسخين .

والحق أن طه حسين بالغ حين عدّه كأحد المستشرقين ، وهو قد نشأ فى بيئة عربية وفى آل الأهتم ، وكان شاعراً كما كان كاتباً ، وقد وجد فى نفسه من قوة البيان ما جعله إمام المترجمين فى عصره ، وقد جعله صاحب الفهرست من البلغاء العشرة الذين قاموا على رأس أدباء العصر العباسى وكتّابه[1] ، وما زال القدماء يستشهدون بآرائه فى الفصاحة والبلاغة ، من ذلك قول الجاحظ فى بيانه[2] : « لم يفسر البلاغة تفسير ابن المقفع أحدٌ قط ، سُئِل ما البلاغة ؟ قال : البلاغة اسم جامع لمعان تجرى فى وجوه كثيرة ، فمنها ما يكون فى السكوت ، ومنها ما يكون فى الاستماع ، ومنها ما يكون فى الإشارة ، ومنها ما يكون فى الحديث ، ومنها ما يكون فى الاحتجاج ، ومنها ما يكون جواباً ، ومنها ما يكون ابتداء ، ومنها ما يكون شعراً ، ومنها ما يكون سجعاً وخطباً ، ومنها ما يكون رسائل . فعامة ما يكون من هذه الأبواب الوحىُ فيها والإشارة إلى المعنى أبلغ ، والإيجاز هو البلاغة »[2] .

---

(١) الفهرست ص ١٨٢ .

(٢) البيان والتبيين ١/١١٥ .

ويروى الجاحظ أن الكتاب الناشئين كانوا يدرسون آثاره ليتعلموا منها البيان ويصقلوا عقولهم وألسنتهم [١] ، وقد سخِرَ مُرَّ السخرية من أحد هؤلاء الناشئين ، إذ رآه يتعرض لقول ابن المقفع فى كليلة ودمنة : « وكن كالنَّسر حوله الجِيَفُ ولا تكن كالجيف حولها النسور » ويقول : إنما كان ينبغى أن يقول بدلا من ذلك : « كن كالضِّرس حُفَّ بالتُّحف ، ولا تكن كالهَبْرة [٢] تُطيف بها الأَكَلَة » . قال الجاحظ : وأظنه أراد الضروس ، فقال : الضرْس ، وهذا من الاعتراض عجب [٣] .

والحق أن ابن المقفع كان من البلاغة فى الذروة ، ويكفى أنه استطاع أن ينقل أهم ما عرفه فى لغته من تراث عقلى وتاريخى وفلسفى وأدبى إلى العربية مع الاحتفاظ لها بكيانها ومشخصاتها ، ومن غير شك عانى فى سبيل ذلك كثيراً ، فقد خرج بما كان يترجم وينقل عن نطاق المعانى العربية السابقة إلى معان جديدة لم يسبق للغتنا أن أدَّتها ، وهى معان كانت تزدحم عليه وتتكاثر وتتنوع ، ومع ذلك لم يستعص عليه التعبير عنها ، وقد كانت حرية أن تحدث عنده اضطراباً فى التراكيب وأن تُدْخل فى أساليبه صوراً من الرطانة الأعجمية ، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، فقد ظلت العربية عنده محتفظة بأصولها الأولى ومقوماتها الأساسية مع السلاسة والطلاوة . واقرأ له هذه الفقرة من كتاب الأدب الصغير [٤] : « وسمعت العلماء قالوا لا عقل كالتدبير ولا وَرَع كالكف ، ولا حسَب كحسن الخلق ، ولا غنًى كالرِّضا ، وأحقُّ ما صُبر عليه ما لاسبيل إلى تغييره ، وأفضلُ البرِّ الرحمة ، ورأس المودة الاسترسال [٥] ، ورأس العقل المعرفة بما يكون وما لا يكون ، وطيب النفس حسنُ الانصراف عما لا سبيل إليه ، وليس فى الدنيا سرور يعدل صحبة الإخوان ، ولا فيها غمٌّ يعدل فَقْدهم . لا يتم حُسْن الكلام إلا بحسن العمل كالمريض الذى قد علم دواء نفسه ، فإذا هو

---

(١) ثلاث رسائل للجاحظ (نشر فينكل) ص ٤٢ .

(٢) الهبرة : القطعة من اللحم .

(٣) الحيوان ٦/٣٣٠ .

(٤) انظر رسائل البلغاء لكرد على (الطبعة الثالثة) ص ٣٥ .

(٥) الاسترسال : الائتناس والانبساط .

لم يتداوَ به لم يُغنه علمه . والرجل ذو المروءة قد يكرم على غير مال كالأسد الذى يُهاب وإن كان عقيراً [١] . والرجل الذى لا مروءة له وإن كثُر ماله كالكلب الذى يهون على الناس وإن طُوِّق وخُلخِل [٢] . ليحْسُنْ تعاهدك نفسك بما تكون به للخير أهلا ، فإنك إذا فعلت ذلك أتاك الخير يطلبك كما يطلب الماءُ السيلَ إلى الحدور » .

وذلك هو أسلوب ابن المقفع فيما بقى بين أيدينا من آثاره ، وهو أسلوب واضح شفاف ، ليس فيه تعقيد ولا إغراب ، وإنما فيه الاسترسال العذب ، وفيه الألفاظ القريبة والعبارات المبسطة حسب الأغراض والمعانى التى كان ينقلها ، وكان ينفر نفوراً شديداً من الإغراب فى اللفظ والتوعُّر فيه ، وكان يقول لبعض من حوله : « إياك والتتبع لوحشىّ الكلام طمعاً فى نيل البلاغة فإن ذلك هو العِىّ الأكبر » كما كان يقول : « عليك بما سَهل من الألفاظ مع التجنب لألفاظ السِّفْلة » وسئل ما البلاغة ؟ فقال : « التى إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها » [٣] .

وابن المقفع بهذه الوصايا يضع بين أيدينا أسس أسلوبه ؛ وهو أسلوب جديد لا شك أنه كان من أوائل من ثبتوا حدوده ورسومه ، أسلوب يقوم على التوسط بين لغة الخاصة وما قد يكون فيها من إغراب فى اللفظ ولغة العامة وما قد يكون فيها من ابتذال . أسلوب عباسى مولَّد ، يلائم فيه ابن المقفع بين حاجات عصره الثقافية وبين مقومات العربية وأصولها اللغوية والنحوية ، وكان يدفعه هذا الأسلوبُ دفعاً إلى أن يدرس الألفاظ ويختبرها ويقارن بينها ويفاضل ، حتى يظفر منها بما يستوفى معانيه من جهة ، وما يتيح لها ضرباً من البلاغة من جهة ثانية .

وأكبر الظن أننا لا نسرف فى القول حين نزعم أن ابن المقفع كان من أوائل من وطَّدوا هذا الأسلوب العباسى المولد ، إن لم يكن أول من وطده وخاصة

---

(١) عقيراً : جريحاً .

(٢) طوق وخلخل : لبس الطوق والخلخال .

(٣) انظر فى هذه النصوص أمالى المرتضى ١ / ١٣٧ .

فى ميدان الترجمة ، وهذا أسلوب يقوم على السهولة والوضوح مع توفير الجزالة والرصانة ، وكان يعمد فيه إلى الإيجاز فالمعانى تؤدى بأقل الألفاظ دون أن تقصر عنها ودون أن تطول طولا يُجحف بحقوقها ، ولعلل ذلك هو الذى جعله يعدل عن أسلوب السجع وكذلك عن أسلوب الترادف الصوتى الذى سبق أن لاحظناه عند الوعاظ وعند عبد الحميد الكاتب وأستاذه سالم ، وليس معنى ذلك أنه لم يكن يهتم بالجمال المادى بتاتاً ، وإنما معناه أنه كان مترجماً ، وكان يسعى إلى الدقة فى الترجمة ، فلم يتوسّع فى رصف الألفاظ وبسطها ، حتى لا تخونه فى أداء معانيه . لقد كانت غايته أن يوفق بين اللفظ الدال والمعنى المدلول ، ومع ذلك لم ينس أبداً أن يكون لفظه جزلا رصينا مصقولا ، وأن ينسقه فى حركاته وأوضاعه تنسيقاً مبينا ، لا يخفى أى شىء مما يحمله معنى أو صورة . وقد ظلت القرون التالية إلى قرننا الحاضر تتداول كثيراً مما ترجمه ، وخاصة كليلة ودمنة والأدب الكبير والأدب الصغير . وهذا الصمودُ للتداول الطويل مرجعه هذا التعاون الوثيق بين المعنى الحصيف واللفظ الرشيق .

٤

سهل بن هرون : أصله وحياته وثقافته

إذا تركنا عصر ابن المقفع وتقدمنا إلى عصر هرون الرشيد التقينا بسهل ابن هرون ، وهو فارسى من دَسْتميسان[١] ، كورة بين البصرة وواسط والأهواز ، ويعيّن الحصْرى القرية التى ولد فيها ، فيقول إنها ميسان[٢] ، واختلف الرواة فى اسم جده ، فهو فى الفهرست رامنوى أو راهبون ، وهو فى البيان والتبيين راهبونى[٣] . وهو مثل ابن المقفع لا يُعرف بالضبط متى كان مولده ، أما وفاته فكانت فى عام ٢١٥ للهجرة[٤] . وقد ترك موطنه أول الأمر إلى البصرة حيث

---

(١) الفهرست (طبعة القاهرة) ص ١٧٤ .
(٢) زهر الآداب ٢/٢٥٨ .
(٣) البيان والتبيين ١/٥٢ .
(٤) معجم الأدباء (طبعة القاهرة) ١١/٢٦٧ .

تخرّج فيها ، ثم انتقل إلى بغداد ، فكتب ليحيى بن خالد البرمكى ، وله أشعار فى مديحه[١] ، ويقال إنه خلفه على الدواوين[٢] ، ويظهر أنه ظل يشتغل فيها لعهد الأمين[٣] . ولما ولى المأمون الخلافة قدّمه إليه الفضل بن سهل فأعجب به ، وجعله خازناً بدار الحكمة[٤] ، وظل بها إلى أن توفى .

ودلائل كثيرة تدل على أنه كان مثقفاً ثقافة ممتازة بجميع معارف عصره ، وأنه كان أحد النقلة من لسانه الفارسى إلى العربية[٥] ، ولكن أهميته لا ترجع إلى ما تَرْجم ، بل ترجع إلى ما صنّف وألّف ، ومن أجل ذلك كان يختلف عن ابن المقفع ، فابن المقفع أهميته الأولى فى تاريخ النثر العربى إنما ترجع إلى أنه كان مترجماً وأنه مرّن أساليب العربية على حَمْل الثقافات الأجنبية ، أما سهل فكان أديباً تبدو شخصيته فيما يؤلف ويدبّج ويحبّر .

ويُجمع من ترجموا لسهل على أنه كان شعوبى المذهب ، شديد العصبية على العرب ، ويقول صاحب الفهرست إن له فى ذلك كتباً كثيرة[٦] . وعلى نحو ما اشتهر بالشعوبية اشتهر بالحكمة ، حتى لقبوه « بزرجمهر الإسلام »[٧] ووصفه الجاحظ فقال : « كان سَهْلٌ سهلا فى نفسه ، عتيق[٨] الوجه ، حسن الشارة ، بعيداً من الفَدامة[٩] ، تقضى له بالحكمة قبل الخبرة ، وبرقة الذهن قبل المخاطبة ، وبدقة المذهب قبل الامتحان ، وبالنُّبْل قبل التكشف »[١٠] . ويلاحظ ابن النديم أن الجاحظ كان يفضّله ، ويصف براعته وفصاحته ويَحْكى عنه فى كتبه[١١] ، وقد صرح مراراً بأنه كان يلقاه[١٢] ، وروى كثيراً من نوادره ، فمن

---

(١) الحيوان ٣/٤٦٦ ، ٥/٦٠٣ والبيان والتبيين ٣/٣٥٢ .
(٢) شرح قصيدة ابن عبدون لابن بدرون (طبعة دوزى) ص ٢٤٣ وما بعدها .
(٣) البيان والتبيين ١/٣٤٦ .
(٤) معجم الأدباء ١١/٢٦٧ .
(٥) البيان والتبيين ٣/٢٩ .
(٦) الفهرست ص ١٧٤ .
(٧) زهر الآداب ٢/٢٥٨ وسرح العيون (طبعة المطبعة الوطنية) ص ١٣٢ .
(٨) عتيق الوجه : جميل .
(٩) الفدامة : العى .
(١٠) البيان والتبيين ١/٨٩ .
(١١) الفهرست ص ١٧٤ .
(١٢) البيان والتبيين ١/٢٣٨ والحيوان ٧/٢٠٢ .

ذلك أنه تندر على أحد جيرانه ، وهو صغير يختلف إلى الكتاب ، فقال :

نُبِّيتُ بَغْلَك مبطونًا فرغتَ له فهل تماثل أو نأتيك عُوَّادا[١]

ويدل هذا على أنه كانت فيه نزعة إلى الفكاهة منذ حداثته ، وتُرْوى له في ذلك طرائف كثيرة ، منها أن رجلا لقيه فقال له : هبْ لى ما لا ضرر به عليك ، فقال : وما هو يا أخى ؟ قال : درهم ، قال سهل : « لقد هَوَّنْتَ الدرهم ، وهو طائعُ الله فى أرضه لا يَعْصى ، وهو عُشْرُ العشرة ، والعشرة عُشر المائة ، والمائة عُشْرُ الألف والألف دِيَةُ المسلم ، ألا ترى إلى أين انتهى الدرهم الذى هوّنته ؟ وهل بيوت المال إلا درهم على درهم »[٢] وقال دعبل الشاعر : « أقمنا عند سهل بن هرون ، فلم نَبرح ، حتى كدنا نموت من الجوع ، فلما اضطررناه ، قال : يا غلام ! ويلك غَدِّنا ! قال : فأتينا بقصعة (بصفحة) فيها مرق ، فيه لحم ديك هرم ، ليس قبلها ولا بعدها غيرُها ، لا تحزُّ فيه السكين ولا تؤثِّر فيه الأضراس ، فاطّلع فى القصْعة وقلَّب بصره فيها ، ثم أخذ قطعة خبز يابس ، فقلَّب جميع ما فى القصعة ، حتى فقد الرأس من الديك ، فبقى مُطْرِقاً ساعة ، ثم رفع رأسه إلى الغلام ، فقال : أين الرأس ؟ فقال : رميتُ به . قال سهل : ولم رميت به ؟ قال : لم أظنك تأكله ، قال : ولأى شيء ظننت أنى لا آكله ؟ فوالله إنى لأمْقُتُ من يرمى برجليه ، فكيف من يرمى برأسه ؟ ثم قال له : لو لم أكره ما صنعت إلا للطِّيرة (التشاؤم) والفأل لكرهته ، الرأس رئيس ، وفيه الحواس (الخمس) ، ومنه يصيح الديك ، ولولا صوته ما أريد ، وفيه فَرْقه الذى يتبرَّك به ، وعينه التى يُضْرب بها المثل ، يقال : شراب كعين الديك (فى الصفاء) ودماغه عجيب لوجع الكُلْيَة ، ولم أر عظْماً قط أهشَّ تحت الأسنان من عظم رأسه . فهلا إذ ظننت أنى لا آكله ظننت أن العيال يأكلونه ؟ وإن كان بلغ من نُبْلك أنك لا تأكله فإن عندنا من يأكله . أما علمتَ أنه خير من طرف الجناح ومن الساق والعنق ، انظر أين هو ، قال :

---

(١) الحيوان ٣/٦٦ .

(٢) سرح العيون ص ١٣٣ .

والله ما أدرى أين رميتُ به ، قال : لكنى أدرى أنك رميتَ به فى بطنك ، والله حَسيبُك»[١] . ويُرْوى أن أبا الهُذَيْل العلاَّف المتكلم المعروف طلب إليه رقعة إلى الحسن بن سهل يوصيه به ، فكتب له كتابًا ، وذهب به إلى الحسن ، فلما فَضَّه أغربَ فى الضحك ، إذ وجد فيه هذه الأبيات :

إن الضميرَ — إذا سألتُك حاجةً — لأبى الهُذَيل خلافُ ما أُبْدى
فامنَحْه روحَ اليأس ثم امْدُدْ له — حبْل الرجاء بمخلف الوَعْد
حتى إذا طالتْ شقاوةُ جَدِّه — وعَنائه فاجْبَهْهُ بالرَّدِّ
وإن استطعت له المضرَّة فاجتهد — فيما يضرُّ بأبلغ الجَهْدِ

فلما راجعه أبو الهذيل قال له : أين عَزَبَ عنك الفهم؟ أما سمعت قولى : إن الضمير خلاف ما أبدى ؟ فلو لم يكن ضميرى الخير ما قلت هذا »[٢]. وقالوا إن المأمون انحرف عنه ، فدخل عليه يومًا ، وقال : يا أمير المؤمنين ! إنك ظلمتنى وظلمت فلانًا الكاتب ، فقال له : ويلك وكيف؟ قال : رفعته فوق قَدْره ، ووضعتنى دون قدرى ، إلا أنك له فى ذلك أشد ظلمًا ، قال : كيف ؟ قال : لأنك أقمته مقام هُزْءٍ وأقمتنى مقام رحمة ، فضحك المأمون ، وقال له : قاتلك الله ! ما أهجاك ! »[٣] . وقَصُّوا عنه أنه خاطب بعض الأمراء ، فقال له : كذبت ، فقال : أيها الأمير ! إن وجه الكذّاب لا يقابلك — يعنى الأمير بذلك — لأن وجه الإنسان لا يقابله[٤] .

وكل هذه الأحاديث والنوادر المروية عن سهل تدل على ذكائه وفطنته وخفة روحه ، وصدق الجاحظ إذ يقول إنه كان سهلا فى نفسه تحكم له برقة الذهن ودقته ، فهو فكه وهو لَسِن شديد العارضة . وفى لهجة لسانه وأسلوب منطقه ما يجعلنا نحس الصلة الشديدة بينه وبين الجاحظ ، إذ يعد امتدادًا — من بعض الوجوة — لهذا اللسان ونموًّا لهذا العقل وما طوى فيه من حجاج وجدل .

---

(١) الحيوان ٢/٣٧٤ وانظر سرح العيون ص ١٣٣ .
(٢) سرح العيون ص ١٣٤ .
(٣) نفس المصدر ص ١٣٤ .
(٤) سرح العيون ص ١٣٤ .

٥

صنعة سهل فى رسائله وكتبه

كان سهل خطيبًا كاتبًا شاعرًا[١] يقول الجاحظ : « ومن الخطباء الشعراء الذين جمعوا الشعر والخطب والرسائل الطوال والقصار والكتب الكبار المجلَّدَة والسِّيَر الحسان المدوّنة والأخبار المولَّدة سهل بن هرون بن راهبونى الكاتب ، صاحب كتاب ثعالة وعفراء فى معارضة كتاب كليلة ودمنة وكتاب الإخوان[٢] ، وكتاب المسائل[٣] ، وكتاب المخزومى والهذلية ، وغير ذلك من الكتب »[٤] . ومن كتبه التى ذكرها ابن النديم كتاب النمر والثعلب ، وكتاب الوامق والعذراء ، وكتاب ندود وودود ولدود وكتاب الغزالين ، وكتاب إلى عيسى بن أبان فى القضاء ، وكتاب تدبير الملك والسياسة[٥] .

ويدل الكتابان الأخيران على أنه عُنى — مثل ابن المقفع — بالكتابة فى شئون الحكم والسياسة ، ولعل أهم هذه الكتب جميعًا كتاب ثعالة وعفراء الذى ألفه فصولا فى قصص الحيوان معارضة لكتاب كليلة ودمنة ، ولم يصلنا هذا الكتاب إنما وصلتنا فقرة منه فى كتاب زهر الآداب للحصرى ، وهى حكمة تمضى على هذا النمط :

« اجعلوا أداء ما يجب عليكم من الحقوق مقدَّمًا قبل الذى تجودون به من تفضُّلكم ، فإن تقديم النافلة مع الإبطاء عن الفريضة مظاهرٌ على وهَن العقيدة وتقصير الرويَّة ، مضرٌّ بالتدبير مخلٌّ بالاختيار ، وليس فى نفعٍ تُحْمَدُ به عوضٌ من

---

(١) انظر فى أشعاره زهر الآداب ٢/٢٥٨ — ٢٥٩ والبيان والتبيين ١/١٩٦ ، ٣/٣٥٢ والحيوان ٣/٤٦٦ ، ٥/٦٠٣ — ٦٠٤ .

(٢) فى الفهرست : كتاب إسباسيوس فى اتحاد الإخوان .

(٣) لعله كتاب الرسائل الذى ذكر فى الفهرست .

(٤) البيان والتبيين ١/٥٢ .

(٥) انظر الفهرست ص ١٧٤ .

فساد المروءة ولزوم النقيصة » ويقول الحصرى عقب هذه الفقرة : وكتابه هذا مملوء حكمًا وعلمًا[١] .

ويُكبر الجاحظ دائما من بلاغة سهل وفصاحته ، ويظهر أنه أهم كاتب ظهر خلال القرن الثانى الهجرى ، يقول صاحب سرح العيون : « انفرد سهل فى زمانه بالبلاغة والحكمة وصَنَّف الكتب معارضاً بها كتب الأوائل»[٢] ويقول الجاحظ : إنه كان فى أول أمره إذا ألف كتابًا طعن الناس عليه ، فكان ينسب ما يؤلفه إلى من عُرفوا بالتأليف مثل سهل ؛ فيشيع الكتاب ويحمله الناس مع الحمد والثناء[٣] .

وإذا ذهبنا نتعقب آثار سهل كى نحكم حكمًا دقيقاً على صناعته وفنه فى كتبه ورسائله لم نجد إلا بقية ضئيلة من هذا المجهود الضخم الذى وصفه الجاحظ وابن النديم وأمثالهما ، ولولا أن الجاحظ احتفظ لنا فى كتابى البخلاء والبيان والتبيين بأطراف من عمله ما استطعنا أن نصدر حكمًا دقيقًا على صياغته ولا على صنعته ، ولعل أهم ما سجله الجاحظ له رسالته التى استفتح بها كتاب البخلاء ، وفيها نرى سهلا يحتج للبخل احتجاجًا فيه حوار الجاحظ وجدله ، وفيه أيضاً فصاحته ولَسَنُه ، بحيث يختلط الأمر على الناظر فى هذه الرسالة ، فيخيل إليه أنها ربما كانت من صُنْع الجاحظ وإنما نحلها سهلا لمأرب فى نفسه ، ولكن هذا الظن ينمحى إذا قرأنا ما بقى من نثر سهل فى مواطن أخرى . ومن يرجع إلى الرسالة يجدها تذم الكرم وتزرى به ، بينما تمدح البخل وتثنى عليه ، وهو ثناء أراد به التعصب على العرب وذم صفة الكرم التى لهج شعراؤهم بذكرها ومدح ما يضادها من الشح والبخل ، ويقال إنه أرسل بها إلى الحسن بن سهل ليكافئه عليها فأجابه على ظهرها : « وصلت رسالتك ، ووقفنا على نصيحتك ! وقد جعلنا المكافأة عنها القبول منك والتصديق لك والسلام»[٤] . وقد توجه بالرسالة فى مفتتحها إلى

---

(١) زهر الآداب ٢/٢٥٨ .
(٢) سرح العيون ص ١٣٢ .
(٣) التنبيه والإشراف للمسعودى (طبع ليدن) ص ٧٦ .
(٤) الفهرست ص ١٧٤ .

بنى عمه ، ويقول القدماء إنه يقصد بنى عمه من آل راهبون ، وأكبر الظن أنه يقصد بهم جماعة العرب لا آل راهبون كما ظن القدماء ، وهو يستهلها على هذا النمط [١] :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أصلح الله أمركم ، وجمع شملكم ، وعلمكم الخير وجعلكم من أهله ، قال الأحنف بن قيس : يا معشر بنى تميم ! لا تسرعوا إلى الفتنة ، فإنَّ أسرعَ الناس إلى القتال أقلُّهم حياء من الفرار ، وقد كانوا يقولون : إذا أردت أن ترى العيوب جَمَّة فتأمل عَيَّاباً ، فإنه إنما يعيب بفضل مافيه من العيب ، وأول العَيْب أن تعيب ما ليس بعَيْب ، وقبيح أن تنهى عن مرشد أو تغرى بمشفق . وما أردنا بما قلنا إلا هدايتكم وتقويمكم ، وإلا إصلاح فسادكم ، وإبقاءَ النعمة عليكم ، ولئن أخطأنا سبيل إرشادكم ، فما أخطأنا سبيل حسن النية فيما بيننا وبينكم . ثم قد تعلمون أنّا ما أوصيناكم إلا بما قد اخترناه لأنفسنا قبلكم ، وشُهرنا به فى الآفاق دونكم . فما كان أحقكم فى تقديم حُرْمتنا بكم أن ترعوا حق قَصْدنا بذلك إليكم ، وتنبيهنا على ما أغفلنا من واجب حقكم ، فلا العذرَ المبسوط بلغتم ، ولا بواجب الحرمة قمتم » .

وأظن أن صنعة سهل قد استبانت لنا فى هذه الأسطر القليلة ، إذ نراه يعنى فى رسالته ببسط الأدلة ، وكأنه يتقدم حواراً عنيفاً ، فهو يدلى بأقيسة وقضايا وآثار مروية ، وليس هذا كل ما يميز صنعته التى نلمح فيها أثر المنطق وتعلم الجدل ، بل يميزها شىء آخر أهم من ذلك ، وهو ما يعمد إليه من بسط العبارة بسطاً يظهر فيه التقطيع الصوتى والترادف الموسيقى ، واستمرَّ معه فى الرسالة فسترى هذا العنصر فى فنه وصياغته يتضح أكثر إذ يقول :

« عبتمونى حين ختمت على سَدٍّ (سَلٍّ) عظيم وفيه شىء ثمين من فاكهة نفيسة ، ومن رُطَبة غريبة ، على عبد نَهِمٍ ، وصبى جشع ، وأمة لَكْعاء ، وزوجة

---

(١) انظر الرسالة بطولها فى فاتحة كتاب البخلاء للجاحظ .

خرقاء . وليس من أصل الأدب ، ولا فى ترتيب الحكم ، ولا فى عادات القادة ، ولا فى تدبير السادة ، أن يستوى فى نفيس المأكول ، وغريب المشروب ، وثمين الملبوس ، وخطير المركوب ، والناعم من كل فن ، واللُّباب من كل شكل ، التابعُ والمتبوع ، والسيد والمسود ، كما لا تستوى مواضعهم فى المجلس ، ومواقع أسمائهم فى العنوانات وما يستقبلون به من التحيات . . . وعبتمونى بخَصْفِ (إصلاح) النعال ، وبتصدير القميص ، وحين زعمت أن المخصوفة أبقى ، وأوطأ وأوقى ، وأنفى للكِبْر ، وأشبه بالنسك ، وأن الترقيع من الحزم ، وأن الاجتماع مع الحفظ ، وأن التفرق مع التضييع ، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يَخْصف نعله ، ويرقّع ثوبه ، ولقد لَفَقَتْ سُعدى بنت عوْف إزار طلحة وهو جواد قريش ، وهو طلحة الفياض » .

وما من ريب فى أن صوت سهل قد اتضح لنا الآن بجميع خصائصه ، فهو يعمد إلى الجدل والدقة فى الحوار كما يعمد إلى شىء طريف فى أسلوبه ، إذ نرى الألفاظ تتوازن لكن لا فى شكل سجع بل فى شكل تقطيعات دقيقة ، وكأنى بسهل لم يكن يعمد إلى أداء أفكاره بلفظ فصيح فقط كما كان يصنع ابن المقفع ، بل كان يعمد إلى ضروب من التوقيع الصوتى فى اللفظ حتى تستقيم لأسلوبه فنون من الجمال المادى الذى يخلب سامعيه ، كى يؤثر فى وجدانهم وعواطفهم ، بجانب ما يؤثر به فى عقولهم من حِجاجه وجدله والتماسه للبراهين والأدلة على أفكاره .

وهذا التقطيع الصوتى فى أسلوب سهل اقترن به عنصر آخر فى صنعته ، هو عنصر الترادف الذى أشرنا إليه ، وارجعْ إلى هذه القطعة التى رويناها له فسترى كل معنى لا يؤدّى أداء واحداً فى عبارة واحدة ، بل يؤدى أداءين أو أكثر حتى يتم لسهل ما يريد من توقيع صوتى وتعادل موسيقى بين ألفاظه وعباراته ، وقد جرّه ذلك إلى ضروب من الترادف فى تراكيبه ، ولكنه ترادف طريف أو قل بعبارة أدق إنه ترادف فنى فقد كان سهل يريد أن يؤدّى به خصائص فنية بجانب ما يؤدى من خصائص ذهنية . وعلى هذا النحو كانت تندمج فى أساليبه

خصائص موسيقية فى خصائص أخرى عقلية نلمحها فى هذا الجدل وهذا الحوار وما يبدو عليه من تلاوين عقلية أحدثتها الثقافة الفلسفية فى تفكيره وأدائه لمعانيه ، وقد كان يعرف كيف يوازن بين هذه التلاوين العقلية وما سبقها من تلاوين موسيقية فتخرج أساليبه وقد التمعت عليها شيات من التأمل والعقل الدقيق ، كما التفَّت عليها شيات أخرى من التوقيع والترادف الموسيقى ، وسنرى هذه الشيات جميعاً تمتد تحت أعيننا فى كل ما دبج الجاحظ وحبَّره من كتب ورسائل ، وإنه ليتأثر فى هذه النزعة سهلا من طرف ، وبيئة المتكلمين الذين نشأ فيهم من طرف آخر ، وكأنما كان أسلوبُ العصر هو أسلوب الجدل والحوار . ولعل مما يشهد لذلك عند سهل ما يروى من أن شخصاً مدح الذهب فأطنب ، ثم قام النظام فذم الزجاج وأطنب ، فاعترضهما سهل يفضل الزجاج على الذهب فى رسالة طويلة لم يبق لنا منها إلا هذه اللُّمعة[١] :

« الزجاج مجلوٌّ نوريّ ، والذهب متاع سائر ، والشراب فى الزجاج أحسن منه فى كل معدن ، لا يُفْتَقَدُ معه وجه النديم ، ولا يُثقل اليد ، ولا يرتفع فى السَّوْم . واسم الذهب يتطيّر منه ، ومن لؤمه سرعته إلى اللئام ، وهو فاتن فاتك (غالب) لمن صانه ، وهو أيضاً من مصايد إبليس ، ولذلك قالوا أهلك الرجال الأحمران (الذهب والزعفران) . والزجاج لا يحمل الوضَر ، ولا يداخله الغَمَر[٢] ، ومتى غُسل بالماء وحده عاد جديداً ، وهو أشبه شيء بالماء ، وصفته عجيبة ، وصناعته أعجب » .

ونحن لا نجد أى فارق بين هذه الطريقة فى الحجاج وبين طريقة الجاحظ فى حجاجه ، إذ كان يركب مثل هذا المركب فى كل ما يكتب ويؤلف ، كأنه يريد أن يغرب عن الناس دائماً بتفكيره ، فهو يخرج على مألوفهم ومعتادهم بآراء شاذة يسوقها فى جدل عنيف . وقد رُويت فى البيان والتبيين لسهل قطعة فى الخطابة والخطباء ، وهى من هذا اللون ، إذ نرى سهلا فيها يفضِّل الخطيب قبيح السَّمْت على الخطيب حسن السمت على هذا النحو[٣] :

---

(١) سرح العيون ص ١٣٥ .

(٢) الغمر : الدسم ، والوضر : وسخه .

(٣) انظر البيان والتبيين ١ / ٨٩ .

« لو أن رجلين خطبا أو تحدثا ، أو احتجّا أو وصفا ، وكان أحدهما جميلا ، بهيًّا ، ذا لباس نبيلا ، وذا حسب شريفًا . وكان الآخر قليلا قميئًا ، وباذَّ الهيئة دميما ، وخامل الذكر مجهولا ، ثم كان كلاهما فى مقدار واحد من البلاغة ، وفى وزن واحد من الصواب ، لتصدَّع عنهما الجَمْعُ ، وعامَّتهم تقضى للقليل الدميم ، على النبيل الجسيم ، وللباذِّ الهيئة على ذى الهيئة ، ولشَغلهم التعجب منه عن مساواة صاحبه ، ولصار التعجُّب منه سبباً للعَجَب به ، ولكان الإكثار من شأنه علة للإكثار فى مدحه ، لأن النفوس كانت له أحقر ، ومن بيانه أيأس ، ومن حسده أبعد ، فإذا هجموا منه على ما لم يحتسبوه ، وظهر منه خلاف ما قدَّروه ، تضاعف حسن كلامه فى صدورهم ، وكبر فى عيونهم ، لأن الشىء من غير معدنه أغرب ، وكلما كان أغرب كان أبعد فى الوهم ، وكلما كان أبعد فى الوهم كان أطْرف ، وكلما كان أطرف كان أعجب ، وكلما كان أعجب كان أبدع ، وإنما ذلك كنوادر كلام الصبيان ، ومُلَح المجانين ، فإنّ ضحك السامعين من ذلك أشد ، وتعجبهم به أكثر ، والناس موكّلون بتعظيم الغريب ، واستطراف البديع ، وليس لهم فى الموجود الراهن المقيم ، وفيما تحت قدرتهم من الرأى والهوى مثل الذى لهم فى الغريب القليل ، وفى النادر الشاذ ، وكل ما كان فى ملك غيرهم . وعلى ذلك زهد الجيرانُ فى عالمهم ، والأصحاب فى الفائدة من صاحبهم ، وعلى هذا السبيل يستطرفون القادم عليهم ، ويرحلون إلى النازح عنهم ، ويتركون من هو أعم نفعاً ، وأكثر فى وجوه العلم تصرُّفاً ، وأخف مئونة وأكثر فائدة ، ولذلك قدم بعض الناس الخارجىّ على العريق[1] ، والطارف على التّليد ، وكان يقول : إذا كان الخليفة بليغاً والسيد خطيباً فإنك تجد جمهورَ الناس وأكثرَ الخاصة فيهما على أمرين : إما رجلا يعطى كلامهما من التعظيم والتفضيل ، والإكبار والتبجيل ، على قدر حالهما فى نفسه ، وموقعهما من قلبه ، وإما رجلا تعرض له التهمة لنفسه فيما ، والخوفُ من أن يكون

(١) الخارجى : يخرج ويشرف بنفسه من غير أن يكون له قديم .

تعظيمه لهما ، يوهمه من صواب قولهما ، وبلاغة كلامهما ما ليس عندهما ، حتى يفرط فى الإشفاق ، ويسرف فى التهمة ، فالأول يزيد فى حقهما للذى لهما فى نفسه ، والآخر ينقصهما من حقه لتهمته لنفسه . وإذا كان الحب يعمى عن المساوئ فالبغض يعمى عن المحاسن ، وليس يعرف حقائق مقادير المعانى ومحصول حدود لطائف الأمور إلا عالم حكيم ، ومعتدل الأخلاط عليم ، وإلا القوىُّ المُنَّة ، والوثيق العُقْدة ، والذى لا يميل مع ما يستميل الجمهور الأعظمَ والسواد الأكبرَ » .

وأنت ترى فى هذه القطعة المجموعتين من التلاوين العقلية والصوتية تلتقيان فى أسلوب سهل فى غير مشقة ولا تكلف ، إذ تندمج فى صياغته القدرة على التحليل والتعليل بالقدرة على صوغ اللفظ وتحبيره والاتساع به حتى يؤدى ضروباً من التوقيع الصوتى والترادف الموسيقى ، وما من شك فى أن ذلك كله كان خطوة نحو أسلوب الجاحظ الذى سنراه ينهض نهوضاً واسعاً بالطرفين من التلاوين العقلية والصوتية . ومهما يكن فقد كان سهل يوفر لألفاظه ومعانيه عناية واسعة ، وهى عناية جعلته أحد بلغاء عصره فى صنع الرسائل الطويلة وتحبيرها ، إذ كان ما يزال يحتال على الرسالة من رسائله بتلاوينه العقلية وتحاسينه الصوتية ، فإذا هى تستوى فى صورة بديعة من الفن والصناعة ، والجمال والطلاوة .

٦

الجاحظ : نشأته وثقافته وحياته

يوضع الجاحظ على رأس كتّاب العصر العباسى غير مدافَع ولا منازَع ، وهو يرجع — فيما يظهر — إلى أصل غير عربى [١] ، وولد فى البصرة حول عام ١٥٩هـ ونشأ فيها نشأة متواضعة إذ يزعم الرواة أنه نشأ يبيع الخبز والسمك بسَيْحان [٢]

---

(١) نزهة الألبا فى طبقات الأدبا لابن الأنبارى ص ٢٥٤ وانظر أمالى المرتضى ١/١٩٤ ومعجم الأدباء لياقوت ١٦/٧٤ .

(٢) معجم الأدباء ١٦/٧٤ .

أحد أنهار بلدته ، وهذا هو كل ما لدينا عن نشأته وحداثته ، على أننا لا نمضى معه فى حياته حتى نراه يترك نهر سيحان إلى أنهار الثقافة فى عصره فهو يغدو على المِرْبَد يسمع من الأعراب الفصحاء ، ويختلف إلى حلقات العلماء فى المسجد الجامع ، يأخذ عن علماء اللغة وغيرهم ، وكانت أهم حلقة تعجبه حلقة المتكلمين وأقبل على قراءة كل ما تُرجم من الثقافات الأجنبية ، ويقصُّون عن شغفه بالقراءة قصصًا كثيرة ، فهم يقولون إنه كان لا يقع فى يده كتاب إلا ويقرأه من أوله إلى آخره[١] ، ويروى صاحب الفهرست أنه كان يكترى دكاكين الوراقين ويبيت فيها للقراءة والنظر[٢] .

وهذا العكوف على القراءة هو الذى جعل كتبه ورسائله أشبه ما تكون بدوائر معارف ، فليس هناك جدول من جداول الثقافة فى عصره إلا وتسربت منه فروع ومنعطفات إلى كتاباته وتأليفاته ، وإن كتبه من هذه الناحية لتشبه تمام الشبه معارضنا الحديثة ، فأنت منذ دخولك فى فواتح هذه المعارض ، تلقى صناعات مختلفة من كل جنس ، وكذلك أنت منذ دخولك فى كتب الجاحظ تجده يعرض تحت بصرك جميع ألوان الثقافة التى عاصرته من هندية وفارسية ويونانية وعربية ، وهو يجمع ذلك فى شكل مشعَّث إذ بينما تراه يتحدث إليك عن حديث شريف أو آية قرآنية ، إذ هو يتحدث عن حكمة يونانية ، وبينما يحدثك عن زرادشت والمانوية ، إذ هو يحدثك عن الإسلام والنبوة ، وبينما يحدثك عن العرب وشعرهم إذ هو يحدثك عن نظرية الكمون عند المعتزلة أو عن نظريته فى أن المعارف طباع ، وحتى هو إن كتب فى البيان عند العرب تجده يبحث لك عن رأى الهند واليونان والفرس فى البلاغة .

وكان الجاحظ من المعتزلة ، وهو تلميذ النظام فى اعتزاله[٣] ، وأشاد به مرارًا فى حيوانه كما أشاد بغيره من المعتزلة أمثال بشر بن المعتمر وثمامة بن الأشرس وأبى الهُذَيْل العلاّف وأضرابهم . وقد استطاع خلال اعتزاله أن ينفذ إلى تأليف

---

(١) أمالى المرتضى ١/١٩٤ . ١٦/٧٥ .

(٢) الفهرست ص ١٦٩ وانظر معجم الأدباء (٣) نزهة الألبا ص ٢٥٤

مجموعة من الآراء تعصبت لها طائفة من المعتزلة سميت باسم الجاحظية[١]، ومهما يكن فقد كان الجاحظ من طائفة المعتزلة، وهى طائفة عُرفت فى هذا العصر بكثرة الجدل والحوار كما عرفت بسعة ثقافتها واتصالها بجميع ألوان المعارف لعصرها وخاصة المعارف اليونانية .

ولم يشتهر المعتزلة فى العصر العباسى بجدلهم وثقافتهم فقط، بل اشتهروا بشىء مهم أيضاً وهو فصاحتهم وبلاغتهم حتى ليقول الجاحظ : «إن كبار المتكلمين ورؤساء النظارين كانوا فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء»[٢] . وقد وصفهم صاحب الانتصار فقال : « إن الكلام لهم دون سواهم»[٣] . ويقول صاحب المقابسات : « إن طريقتهم مؤسسة على مكايلة اللفظ باللفظ، وموازنة الشىء بالشىء والاعتماد على الجدل »[٤]. ويظهر أيضا أنهم كانوا يعتمدون فى جدلهم على الاستشهاد بالشعر، ويقول المرتضى عن أبى الهُذَيْل العلاف : « كان يحفظ كثيراً من الشعر العربى ويستشهد به فى مجالسه، قال المبرد : ما رأيت أفصح من أبى الهذيل والجاحظ ، وكان أبو الهذيل أحسن مناظرة، شهدته فى مجلس وقد استشهد فى جملة كلام بثلاثمائة بيت »[٥] . وتوفى أبو الهذيل حوالى عام ٢٣٢هـ . وربما كان من تأثيره ما نجده عند الجاحظ فى كتبه من كثرة استشهاده بالشعر، وقد يكونان هما جميعاً يتأثران بطريقة غيرهما من المعتزلة فى هذا الاستشهاد، بمعنى أنه استقر قبلهما عند أبناء مذهبهما .

ومهما يكن فقد لَقِفَ الجاحظ فى بيئة المعتزلة الجدلة اللَّسِنة فصاحته وبيانه متأثراً بكتابات عصره وخاصة كتابات سهل بن هرون الذى كان يشغف به كما لاحظ ابن النديم فى فهرسته . ونحن لا نصل إلى القرن الثالث حتى نجده وقد استوتْ له شهرة فائقة بين كُتَّاب عصره، ولعل ذلك ما جعل المأمون يطلب

---

(١) انظر الفرق بين الفرق لأبى منصور البغدادى طبع مطبعة المعارف ص ١٦٠–١٦٢ حيث عرض للرد على الجاحظية وآرائها .

(٢) البيان والتبيين ١/١٣٩ .

(٣) الانتصار لابن الخياط (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٧٢ .

(٤) المقابسات (طبع مصر) ص ٢٢٣ .

(٥) المنية والأمل ص ٣٦ .

إليه أن يكتب له رسالة فى العباسية والاحتجاج لها، ويقال إنه أقيم على ديوان الرسائل غير أنه لم يمكث فيه سوى ثلاثة أيام[١] وكأنه لم يستطع الخضوع لنظم الدواوين وما يقتضيه سير العمل فيها فوجدناه يهجرها إلى داره وما عكف عليه من إدمان القراءة والتأليف، ويظهر أن كبراء الدولة كانوا يكفونه حاجته فقد رُوى أن ابن الزيات أعطاه فى كتاب الحيوان خمسة آلاف دينار وأعطاه ابن أبى دؤاد فى البيان والتبيين خمسة آلاف دينار ثانية ، كما أعطاه إبراهيم بن العباس الصولى خمسة آلاف ثالثة فى كتاب الزرع والنخل[٢] . أما الفتح بن خاقان وزير المتوكل الذى صنف له رسالته فى فضائل الترك فقد أجرَى عليه راتبًا شهريًّا كان يتقاضاه من خزانة الدولة[٣] .

وعلى هذا كان الجاحظ يتصل بكبار رجال الدولة العباسية وكانوا يوادّونه ويصادقونه، ويقال إنه كان صديقاً لابن الزيات مقربًا منه فلما قُبض عليه وأودع فى التنُّور فرَّ الجاحظ هارباً خوفاً من أن يناله نفس عقابه ، ولما قُبض عليه وقُدِّم إلى ابن أبى دؤاد عدوّ ابن الزيات لقيه لقاءً جافًّا فاعترضه قائلا : « خفِّض عليك — أيدك الله ! — فوالله لأن يكون لك الأمرُ علىّ خيراً من أن يكون لى عليك، ولأن أسيء وتحسن أحسنُ فى الأحدوثة من أن أحسن وتسيء ، ولأن تعفو عنى فى حال قدرتك أجملُ بك من الانتقام منى ، فعفا عنه »[٤] وعاد إلى البصرة يؤلف ويكتب هذه المصنفات والكتب التى كان يتعلق بها العامة والخاصة تعلقاً شديداً[٥] وربما كان من أسباب ذلك ما امتاز به من ميل إلى التندر والدعابة حتى ليقول بن أبى دؤاد: « إنى أثق بظرفه »[٦] . ويصف من جاءوا بعده كتبه فيقولون: إنها مكتوبة فى ضروب من الجد والهزل[٧] . ومن طُرف الجاحظ فى ذلك أنه قال عن نفسه : نسيت كنيتى

---

(١) معجم الأدباء ١٦/٧٩ .
(٢) انظر فى ذلك نفس المصدر ١٦/١٠٦ .
(٣) انظر معجم الأدباء ١٦/٩٩ .
(٤) أمالى المرتضى ١/١٩٥ ومعجم الأدباء ١٦/٧٩ .
(٥) معجم الأدباء ١٦/٩٨ .
(٦) نزهة الألبا ص ٢٥٨ .
(٧) معجم الأدباء ١٦/٧٦ .

ثلاثة أيام حتى أتيت أهلى فقلت لهم: بم أُكْنَى؟ فقالوا : بأبى عثمان[١]، ويروى أنه حفّظ رجلا أعجمياً نسباً يدّعيه لنفسه فى العرب فلما حفظه قال له: الآن لاتتيه علينا فقال الرجل: سبحان الله ! إن فعلت ذلك فأنا إذاً دعيّ[٢]. وهذا جانب واسع فى الجاحظ ومن خير ما يصوره كتاب البخلاء وما رواه فيه من نوادرهم وفكاهاتهم .

والحق أن الجاحظ كان شخصية فكهة كما كان شخصية لَسِنَة، وقد عنى بتأليف الكتب والرسائل ، وأكثَرَ من ذلك، حتى قالوا إنه ترك نيفاً ومائة وسبعين كتاباً ، ومن يرجع إلى الثبت الطويل الذى كتبه فى أول حيوانه عن مؤلفاته يندهش لكثرة ما ألّف وكتب، ولعل ذلك هو أساس شهرته فقد طار اسمه فى الآفاق حتى فى عصره وزمنه . قصّ الرواة أنه قيل لأبى هفان: لم لاتهجو الجاحظ وقد ندّد بك وأخذ بمخنقك فقال: أمثلى يُخْدَعُ عن عقله، والله لو وضع رسالة فى أرنبة أنفى لما أمستْ إلا بالصين شهرة، ولو قلت فيه ألف بيت لما طنّ منها بيت فى ألف سنة[٣]، ويروون أن أندلسياً قرأ فى موطنه كتابيه (البيان والتبيين) و (التربيع والتدوير) فهاجر إليه يريد لقاءه، ويزعمون أن هذا الأندلسى قال فى بعض حديثه كان طالبُ العلم بالمشرق يشرف عند ملوكنا بلقاء أبى عثمان[٤] .

ومن المحقق أن الجاحظ نال شهرة مدوية فى عصره وبعد عصره، إذ نجد النقاد والأدباء يلهجون دائماً بمدحه والثناء عليه حتى ليقولون إن كتبه رياض زاهرة ورسائل مثمرة[٥]. وكان ابن العميد يقول : إن الناس عيال عليه فى البلاغة والفصاحة واللَّسَنِ والعارضة[٦]، وكان يقول أيضاً : إن كتب الجاحظ تعلم العقل أولا والأدب ثانياً[٧]. ومع ذلك كان الجاحظ يشكو من حساده وأنه كان فى أوائل

---

(١) نزهة الألبا ص ٢٥٥ .
(٢) معجم الأدباء ١٦/ ٩٤ .
(٣) نفس المصدر ١٦/ ٩٩ .
(٤) نفس المصدر ١٦/ ١٠٤ .
(٥) نفس المصدر ١٦/ ٩٨ .
(٦) معجم الأدباء ١٦/ ١٠٣ .
(٧) وفيات الأعيان لابن خلكان ١/ ٣٨٩.

حياته إذا أخرج كتابا معنوناً باسمه نقموه عليه وأظهروا له الازدراء فكان كثيراً ما يؤلف كتباً وينسبها إلى ابن المقفع والخليل والعتابى وسلم صاحب بيت الحكمة فيأتونه لكتابتها وروايتها عنه[١] !!

وقد عاش الجاحظ نحو ستة وتسعين عاماً وتوفى سنة ٢٥٥ هـ[٢] ؛ وأكبر الظن أن هذه السن الطويلة هى التى ساعدته على كثرة التأليف وأيضاً فقد كان مشوه الخلق جاحظ العينين[٣] فانصرف عنه الناس وعُنى هو بصناعة الكتب، ومما ساعده على ذلك أنه مرض شطراً طويلا من حياته فاضطر إلى ملازمة بيته وقطع فراغه بالكتابة والتأليف، وقد ألف أثناء هذا المرض أشهر كتبه، ونقصد كتاب الحيوان الذى شكا فيه من مرضه[٤]، والذى قدمه لابن الزيات المتوفى عام ٢٣٣ هـ وإنه ليقول له متفكهاً فى إحدى رسائله وقد أشار عليه أن يجلد كتبه: « جعلت كتبى مصحفاً مصحفاً . . . ورأيت أن أنظر فيها وأنا مستلق ولا أنظر فيها وأنا منتصبٌ، استظهاراً على تعب البدن، إذ كانت الأسافل مثقلة بالأعالى، وإذا كان الانتصاب يسرع فى إدخال الوهن على الأصلاب»[٥] . ويظهر أن هذا المرض الذى شكا منه الجاحظ فى رسائله وحيوانه هو الفالج ، ومن يرجع إلى الحصرى فى ذيل زهر الآداب يجده يؤكد أن الجاحظ ألف الحيوان وهو مفلوج[٦] . وقد صرح الجاحظ فى كتاب البخلاء بأنه ألفه وهو مصاب بالفالج إذ يقول : « صحبنى محفوظ النقاش من المسجد الجامع ليلا ، فلما صرت قرب منزله ، وكان منزله أقرب إلى المسجد الجامع من منزلى سألنى أن أبيت عنده ، وقال أين تذهب فى هذا المطر والبرد ومنزلى منزلك ، وأنت فى ظلمة وليس معك نار ، وعندى لبأٌ لم ير الناس مثله ، وتمرٌ ، ناهيك به جودة ؛ لا تصلح إلا له ، فلت معه ، فأبطأ ساعة ، ثم جاءنى بجام لبأٍ وطبق تمر ، فلما مددت يدى

---

(١) مجموعة رسائل الجاحظ (نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ١٠٨ .

(٢) أمالى المرتضى ١/١٩٩ .

(٣) وفيات الأعيان ١/٣٨٨ .

(٤) انظر الحيوان ٤/٢٠٨ .

(٥) مجموع رسائل الجاحظ ص ٧٤ .

(٦) ذيل زهر الآداب للحصرى (طبع الخانجى) ص ١٦٥ .

قال يا أبا عثمان ! إنه لبأٌ وغِلظه وهو الليل وركوده، ثم ليلة مطر ورطوبة، وأنت رجل قد طعنت فى السن، ولم تزل تشكو من الفالج طرفا »[١] . وكما أصيب الجاحظ بالفالج أصيب بالنقرس ويظهر أن ذلك كان فى أواخر حياته، قال المبرد : « دخلت على الجاحظ فى آخر أيامه فقلت له كيف أنت ؛ قال كيف يكون من نصفه مفلوج لو خُزَّ بالمناشير ما شعر به ونصفه الآخر منقرس لو طار الذباب بقربه لآلمه»[٢] ويقال إن المتوكل وجَّه فى طلبه سنة ٢٤٧ هـ يريد أن يُحمَل إليه فقال : وما يصنع أمير المؤمنين بامرئ ليس بطائل، ذى شِقٍّ مائل ولعاب سائل ، وعقل زائل ولون حائل»[٣] . ويروون أن طبيباً عاده فقال له : « اصطلحت الأضداد على جسدى ، إن أكلت بارداً أخذ برجلى وإن أكلت حاراً أخذ برأسى»[٤] . وأخيراً وبعد مرض قاس طويل انهالت الكتب على الجاحظ يوماً وهو جالس بينها يقرأ فقضت عليه[٥] ، وهكذا ذهب الجاحظ ضحية آثر الأصدقاء وأعزهم لديه[٦].

٧

الصنعة الجاحظية

يمتاز الجاحظ بأنه لم يترك موضوعاً عامًّا إلا وكتب فيه رسالة أو كتاباً، وإن من يرجع إلى رسائله وكتبه يجده قد ألَّف فى النبات وفى الشجر وفى الحيوان وفى الإنسان وفى المعاد والمعاش وفى الجدّ والهزل وفى الترك والسودان وفى المعلمين والقيان وفى الجوارى والغلمان وفى العشق والنساء وفى النبيذ وفى الشيعة والعباسية وفى

---

(١) البخلاء (نشر وزارة التربية والتعليم) ٤٥/٢ .
(٢) معجم الأدباء ١١٣/١٦ .
(٣) أمالى المرتضى ١٩٩/١ .
(٤) أمالى المرتضى ١٩٩/١ .
(٥) انظر تاريخ أبى الفدا فى سنة ٢٥٥ هـ ، وانظر أيضاً شذرات الذهب لابن العماد (نشر مكتبة القدسى) ١٢٢/٢ .
(٦) الحيوان ٣٨/١ .

الزيدية والرافضة وفى الرد على النصارى وفى حجج النبوة ونظم القرآن وفى البيان والتبيين وفى حيل لصوص النهار وحيل سُرّاق الليل وفى البخلاء واحتجاج الأشحّاء . وإن فى هذا ما يدل على أن الجاحظ خطا بالكتابة الفنية عند العرب خطوة جديدة نحو التعبير عن جميع الموضوعات فى خلابة وبيان عذب ، وكأنى به لم يكن يفهم أن الكتابة الأدبية ألفاظ ترصف ، وإنما كان يفهمها على أنها معان تنسق فى موضوع خاص مما يتصل بالطبيعة أو بالإنسان . وكان لذلك صبغته الخاصة فى كتابته ، فإنها كتابة ذات موضوع قبل أن تكون ذات أسلوب ، وليس معنى هذا أنه كان يهمل ألفاظه وتراكيبه ، بل لقد كان يعنى بهما عناية شديدة ، وقد صرّح بذلك غير مرة فقال إنه يعنى بتأليف كتبه ويتأنق فى ترصيفها[١] . ويقول : « لربما خرج الكتاب من تحت يدى مُحصَفاً كأنه متن حجر أملس بمعان لطيفة محكمة ، وألفاظ شريفة فصيحة »[٢] . ولكن عناية الجاحظ على هذا النحو بكتبه ورسائله وأسلوبه فيهما لم تكن تجعله يخرج إلى التماس الألفاظ من حيث هى ألفاظ ، فقد كان يرى أن « شر البلغاء من هيّأ رسم المعنى قبل أن يهيئ المعنى ، عشقاً لذلك اللفظ وشغفاً بذلك الاسم حتى صار يجر إليه المعنى جرّا ، ويلزقه به إلزاقا ، حتى كأن الله تعالى لم يخلق لذلك المعنى اسماً غيره »[٣] . فالجاحظ كان يكره العناية البالغة باللفظ تلك العناية التى تسوق صاحبها إلى حفظ أساليب محفوظة بذاتها يبنى عليها معانيه ويصوغ عليها أفكاره ، فإن ذلك يقود الكاتب إلى أن يصبح عبداً لمجموعة من الألفاظ يجرّ إليها المعانى ويشدها شدّا .

وهذا هو الطابع العام للجاحظ فى كتاباته فهو يعنى بألفاظه ومعانيه جميعاً دون أن يجور أحد الفريقين على الآخر أو يحيف عليه ، وقد دفعه ذلك إلى أن يعنى بآرائه وأدلته وبراهينه ومقدماته ونتائجه متأثراً فى ذلك بما لقف من منطق وفلسفة ومعرفة بالجدل والحوار اللذين كانا شائعين فى بيئته ، ونقصد بيئة المعتزلة ،

---

(١) مجموع رسائل الجاحظ ص ١٠٢ .
(٢) نفس المصدر ص ١٠٩ .
(٣) رسائل الجاحظ (طبع السامى) ص ١٥٩

وبجانب ذلك نجده يعنى أيضاً بألفاظه وأساليبه عناية من شأنها أن تجعله يدقق فى انتخاب ألفاظه وأن يقطع عباراته تقطيعات صوتية طريفة، وهى تقطيعات انزلقت به إلى فنون من التكرار الموسيقى ، كى تتم له الموازنة بين لفظه ومعناه، تلك الموازنة التى انتهت به إلى أن يعشق الأداء الدقيق لمعانيه وأن يعشق معه الوصف الحسى الصحيح لما شاهد، مما آذن بظهور الواقعية فى كتبه ، وأيضاً فإنه كان يرى أن يخرج دائماً فى رسائله وكتاباته من باب إلى باب حتى لا يمل القارئ ،مما طبع أعماله جميعاً بطابع الاستطراد ، وأكبر الظن أننا لا نبعد إذا قلنا إن الصفات الفنية الأساسية فى كتابات الجاحظ هى الواقعية والاستطراد وضروب من التلوين الصوتى وأخرى من التلوين العقلى بحيث لا تقرأ أى أثر من آثاره إلا وتجد هذه العناصر الأربعة لصنعته ماثلة تحت عينيك إذ يسعى الجاحظ دائماً إلى أن يروى لك الوقائع كما هى دون تمويه ، كما يسعى إلى الاستطراد فى تآليفه حتى لا يسأم القارئ ولا يناله شىء من الكد والسَّوْق العنيف ، وأيضاً فإنه كان يشفع كتاباته دائماً بتلوين صوتى أنيق وتلوين عقلى بديع ، وسنقف لنفصل هذه العناصر الأربعة لصنعة الجاحظ وهى الواقعية والاستطراد والتلوين الصوتى والتلوين العقلى .

الواقعية

من يتابع الجاحظ فى صنعة كتبه ورسائله يجده يشغف بحكاية الواقع ، لا يتستر ، ولا يتخفى ، حتى إنه ليذكر السوءات والعورات فى غير مواربة ولا مداجاة ، وكأنه كان يرى أن يذكر الحقائق عارية دون أن يسدل عليها أى ستر أو أى حجاب ، ودافع مراراً عن هذا المنهج وقال إن من يعدل عنه لا بد أن يكون صاحب رياء ونفاق ، وهو ليس من أهل الرياء والنفاق ، بل هو من أهل الصراحة ، أو هو بعبارة أدق من أصحاب منهج الواقعية (Realism) الذين لا يداجون ولا ينافقون بل يصفون الأشياء كما هى فى غير تحرج ولا تأثم حتى إنهم لا يخجلون من وصف بعض النزعات الجنسية لأنهم يريدون أن يصفوا

الحياة كما هى بدون تغيير ولا تبديل إلا فى حدود التعبير الفنى .

وهذه النغمة من الواقعية فى آثار الجاحظ أثرت فى كتاباته آثاراً مختلفة ، ولعل أول هذه الآثار أننا نجده يعنى بحكاية عصره وتمثيله تمثيلا دقيقاً بحيث تُعدُّ أعماله أهم مراجع تكشف لنا حقائق العصر الذى عاش فيه ، إذ نراه يصور هذه الحقائق بكل ما فيها من طُهْرٍ ووزْرٍ ، ودين وزندقة ، وجد ولهو ، وبالغ فى ذلك حتى إنه ليروى كلام المجانين الموسوسين وكلام أهل الغفلة من النَّوْكى والحَمْقَى[١] . وإنه ليروى أيضاً عن الغلمان والصعاليك والزُّطِّ واللصوص كما يروى عن الخلفاء والأمراء والوزراء وقواد الدولة وكبار كتَّابها . وارجع إلى كتاب البخلاء فإنك تراه يعرض عليك بخلاء عصره من مثل سهل بن هرون والكندى وابن غزوان والحارثى والحرامى فى غير تصنع ولا مداراة ، وفيم يتصنع الجاحظ ويدارى؟ إنه يريد أن يجعل الأدب صورة من الواقع ، وهو لذلك لا يستعين على كتابة بخلائه بالتاريخ أو ذاكرة الماضى ، إنما يستعين بمفكرة الحاضر والعصر الذى يعيش فيه وقد عرف كيف ينقله إلينا بجميع طبقاته وأفراده وملامحهم وخصائصهم النفسية .

وأثر ثانٍ أثرته الواقعية فى كتابات الجاحظ وهو ما يلاحظ عليه من تدقيقه فى ألفاظه وانتخابها بحيث تلائم ما يصفه أو يصوره حتى إنه ليحكى كلام المولدين والعوامّ بما فيه من لحن وخطأ لينقل إليك الواقع بكل ما فيه . يقول فى البخلاء : « وإن وجدتم فى هذا الكتاب لحناً أو كلاماً غير معرَّب أو لفظاً معدولا عن جهته فاعلموا أنا إنما تركنا ذلك لأن الإعراب يبغّض هذا الباب ويخرجه من حدّه إلا أن أحكى كلاماً من كلام متعاقلى البخلاء وأشحاء العلماء كسهل بن هرون وأشياهه»[٢] . فهو يحكى دائماً أخباره وحوادثه بلغتها الدقيقة ، وأكبر الظن أن هذه النزعة فيه هى التى حملته على أن يلتهج فى كتبه ورسائله كثيراً بفكرة مطابقة الكلام لمقتضى الحال[٣] . ومن قوله بصدد ذلك : « إن

---

(١) انظر البيان والتبيين ٢/٢٢٥ وكذلك ٢/٣٤٤ . وأيضاً ٤/٥ وما بعدها .

(٢) البخلاء ١/٧٨ .

(٣) الحيوان ٣/٤٣ وانظر البيان والتبيين ١/١٣٨ .

لكل معنى شريف أو وضيع ، هزل أو جد ، حرفة أو صناعة ، ضرباً من اللفظ هو حقه ونصيبه الذى لا ينبغى أن يجاوزه أو يقصر دونه »[١] . وفى هذا ما يدل على شدة عنايته بالملاءمة بين الألفاظ ومعانيها ، ولعله من أجل ذلك كان يدعو إلى « النظر فى مواقع الألفاظ وأين استعملتها العرب »[٢] .

وأثر ثالث أثرت به الواقعية فى كتابات الجاحظ وأعماله ، وهو ما يمتاز به من عدم عنايته بالتشبيهات والاستعارات إلا ما جاء عفو الخاطر أو كان الغرض منه تمثيل الواقع ، وهذا طبيعى عند الجاحظ لأنه لم يكن يعمد إلى زينة لفظية عشقاً للزينة من حيث هى على نحو ما سنعرف فيما بعد عند أصحاب مذهب التصنيع ؛ فالكتابة عنده ليست زخرفاً خالصاً يراد به إلى الوشى والحلى وما يندمج فى ذلك من صور وتشبيهات واستعارات ، بل هى معان تؤدى فى دقة ، تفسر الوقائع والأحداث تفسيراً لا تستره أسجاف الاستعارات والأخيلة . وليس معنى ذلك أن الجاحظ لم يكن دقيق التصوير ، فإنه إنما عزف عن الأخيلة ، لما تضع أمام القارئ من مبالغات ، أما بعد ذلك فإنه كان مصوراً عظيما ، إذ كان يعرف كيف ينقل المشاهد بجميع تفاصيلها ودقائقها تسعفه فى ذلك قدرة غريبة على الملاحظة ، وهى قدرة جعلته يحسن التصوير من جهة كما يحسن القصص من جهة أخرى . ويتضح ذلك فى كتابه البخلاء حين يرسم جشع النهمين وحركات أيديهم وقسمات وجوههم ، كما يتضح فى كتاب الحيوان وما أودعه من قصص . ومن قصصه البارعة فيه التى تصور دقة تصويره ما حكاه عن عبد الله بن سوّار القاضى ووقاره فى قصصه الدينى ووعظه وأنه كان لا يحرك أثناء كلامه رأسه ولا يديه حتى كأن كلامه يخرج من صدْع صخرة ، فألح الذباب عليه يوماً ، وما زال به حتى أخرجه عن طبعه ، فاستعان بتحريك أجفانه ، ولم يُجْدِه ذلك نفعاً فذبّه عن وجهه بيديه ، فابتعد عنه قليلا ثم عاد إليه ، فدفعه بطرف كمّه ، وما زال يتابع ذلك . يقول[٣] :

---

(١) رسائل الجاحظ (طبع الساسى) ص ١٥٩. (٣) الحيوان ٣/٣٤٣ .

(٢) البيان والتبيين ١/٢٠ .

«كان لنا بالبصرة قاض يقال له عبد الله بن سَوَّار لم ير الناس حاكماً قط ولا زِمِّيتاً(١) ولا رَكيناً(٢) ولا وقوراً حليماً ضبط من نفسه وملك من حركته مثل الذى ضبط وملك . كان يصلى الغداة فى منزله، وهو قريب الدار من مسجده ، فيأتى مجلسه ، فيَحتبى ولا يتكئ ، فلا يزال منتصبا لا يتحرَّك له عضو ولا يلتفت ولا يحلُّ حُبْوته (٣) ولا يحوِّل رجلا عن رجل ، ولا يعتمد على أحد شقَّيه، حتى كأنه بناء مبنيٌّ أو صخرة منصوبة . فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة الظهر ، ثم يعود إلى مجلسه فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى العصر ثم يرجع إلى مجلسه فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة المغرب . . . كذلك كان شأنه فى طِوال الأيام وفى قصارها وفى صيفها وفى شتائها، وكان مع ذلك لا يحرِّك يده ولا يشير برأسه ، وليس إلا أن يتكلم فيوجز ويبلغ بالكلام اليسير المعانى الكثيرة . فبينما هو كذلك ذات يوم وأصحابه حواليه وفى السِّماطين(٤) بين يديه إذ سقط على أنفه ذباب فأطال المُكْث ، ثم تحول إلى مُؤْق(٥) عينه، فرام الصبر فى سقوطه على المؤق وعلى عضِّه ونفاذ خرطومه كما رام الصبر على سقوطه على أنفه من غير أن يحرك أرنبته أو يغضِّن وجهه أو يذبَّ بإصبعه . فلما طال ذلك عليه من الذباب وشغله وأوجعه وأحرقه وقصد إلى مكان لا يحتمل التغافلَ أطبق جفنه الأعلى على جفنه الأسفل فلم ينهض (الذباب) فدعاه ذلك إلى أن والى بين الإطباق والفتح ، فتنحَّى ريثما سكن جَفْنه . ثم عاد إلى مؤقه بأشد من مَرَّته الأولى فغَمس خرطومه فى مكان كان قد أوْهاه قبل ذلك، فكان احتماله له أضعف وعجزه عن الصبر فى الثانية أقوى، فحرَّك أجفانه وزاد فى شدة الحركة وفى فتح العين وفى تتابع الفتح والإطباق ، فتنحَّى عنه بقدر ما سكنت حركته ، ثم عاد إلى موضعه ، فما زال يُلِحُّ عليه حتى استفرغ صبره وبلغ مجهوده . فلم يجد بدًّا من أن يذبَّ عن عينيه بيده، ففعل، وعيونُ القوم إليه ترمقه . فتنحَّى عنه بقدر ما ردَّ يده وسكنت حركته، ثم عاد إلى موضعه ، ثم ألجأه إلى أن ذبَّ

(١) زميتا : وقوراً .

(٢) ركيناً : رزيناً .

(٣) الحبوة: أن يجمع الرجل بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها .

(٤) السماطين : مثنى سماط وهو الصف.

(٥) المؤق : طرف العين مما يلى الأنف .

عن وجهه بطَرَف كمّه ثم ألجأه إلى أن تابع بين ذلك . وعلم أن فعله كله بعين مَنْ حَضَرَهُ من أمنائه وجُلسائه . فلما نظروا إليه قال : أشهد أن الذباب ألجُّ من الخنفساء وأزهى من الغراب! وأستغفر الله! فما أكثر من أعجبتْه نفسُه، فأراد الله عز وجل أن يعرِّفه من ضعفه ما كان عنه مستوراً . وقد علمتُ أنى عند الناس من أزْمَتِ[1] الناس ، فقد غلبنى وفضحنى أضعفُ خلقه ، ثم تلا قوله تعالى : (وإن يَسْلُبْهُم الذبابُ شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضَعُفَ الطالب والمطلوب) » .

وواضح أن القصة تعتمد على دقة التصوير ، وهى دقة ترسم الواقع رسما أميناً ، بدون تهويل أو مبالغة أو اعتماد على استعارات وتشبيهات إلا ما يأتى عفواً للإيضاح لا للتجميل والتزيين .

الاستطراد

وإذا كانت الواقعية عنصراً أساسيًّا فى أعمال الجاحظ فإن هناك عنصراً آخر عمّ آثاره، وربما كان أهم من عنصر الواقعية، وهو عنصر الاستطراد إذ يلاحظ كل من يقرأ فى الجاحظ حالا من التشعث فى التأليف ، فهو دائماً ينتقل من باب إلى باب ومن خبر إلى خبر ومن شعر إلى فلسفة ومن جد إلى هزل فى تشعب هائل، حتى ليقول كارا دى فو : إن الموضوع عند الجاحظ ليس إلا وسيلة للاستطراد[2] ، وقد أشار إلى هذا الاستطراد قديماً المسعودى فى كتابه مروج الذهب[3] ، وقد كان الجاحظ يتخذه منهجاً فى تأليفه وخاصة فى حيوانه وبيانه ، واعترف به مراراً واحتج له . انظر إليه يقول فى الحيوان : « قد عزمتُ — والله الموفق — أنى أوشّح هذا الكتاب وأفصّل أبوابه بنوادر من ضروب الشعر وضروب الأحاديث ليخرج قارئ هذا الكتاب من باب إلى باب ومن شكل إلى شكل، فإنى رأيت الأسماع تملُّ الأصوات المطربة والأغانى الحسنة والأوتار الفصيحة

---

(١) أزمت الناس : أشدهم وقاراً وسكوناً .

(٢) Carra de Vaux, Les Penseurs De L'Islam Vol. I, p. 295.

(٣) مروج الذهب ٤/١٣٦ .

إذا طال ذلك عليها، وما ذلك إلا فى طريق الراحة التى إذا طالت أورثت الغفله، وإذا كانت الأوائل قد سارت فى صغار الكتب هذه السيرة كان هذا التدبير لما طال وكثر أصلح»[1] . ويقول أيضاً : « ولولا أنى أتكل على أنك لا تملّ باب القول فى البعير حتى تخرج إلى الفيل، وفى الذرة حتى تخرج إلى البعوضة ، وفى العقرب حتى تخرج إلى الحيّة، وفى الرجل حتى تخرج إلى المرأة ، وفى الذبان والنحل حتى تخرج إلى الغربان والعِقْبان، وفى الكلب حتى تخرج إلى الديك ، وفى الذئب حتى تخرج إلى السبع ، وفى الظِّلف حتى تخرج إلى الحافر ، وفى الحافر حتى تخرج إلى الخفّ، وفى الخف حتى تخرج إلى البرثن ، وفى البُرْثُن حتى تخرج إلى المِخْلَب ، وكذلك القول فى الطير وعامة الأصناف ، لرأيت أن جملة الكتاب وإن كثر عددُ ورقه، أن ذلك ليس مما يُمِلُّ ويعتدُّ على فيه بالإطالة ؛ لأنه وإن كان كتاباً واحداً فإنه كتب كثيرة، وكل مصحف منها فهو أمٌّ على حدة، فإن أراد قراءة الجميع لم يَطُل عليه الباب الأول حتى يهجم على الثانى ولا الثانى حتى يهجم على الثالث، فهو أبداً مستفيد ومستطرف ، وبعضه يكون جِماماً لبعض، ولا يزال نشاطه زائداً ، ومتى خرج من آى القرآن صار إلى الأثر ، ومتى خرج من أثر صار إلى خبر ، ثم يخرج من الخبر إلى شعر ، ومن الشعر إلى نوادر ، ومن النوادر إلى حكم عقلية ومقاييس سِداد ، ثم لا يترك هذا البابَ ، ولعله أن يكون أثقل والملال إليه أسرع ، حتى يفضى به إلى مَزْح وفكاهة ، وإلى سُخْف وخرافة، ولست أراه سخفاً إذ كنت إنما استعملت سِيرة الحكماء وآداب العلماء »[2].

وإذاً فالجاحظ يعترف بأنه يستطرد وبأنه يعمد إلى ذلك عمداً خشية ملل القارئ وسآمة السامع ، واحتجّ لصنيعه بأن الأوائل قد سارت فى كتبها هذه السيرة ، إذ يقول : إنه إنما يستعمل سيرة الحكماء وآداب العلماء . ولسنا ندرى أى حكماء وعلماء يشير إليهم إلا أن يكون قد أشار بذلك إلى بعض ما تُرجم للعرب من كتب الهند التى يشبِّه البيرونى ما فيها «بصدف مخلوط بخزف ، أو

---

(١) الحيوان ٣/٧ .

(٢) الحيوان ١/٩٣ .

بدّر ممزوج ببعْر ، أو بمهى مقطوب بحصى »[١] وإن من يتصفح كتاب كليلة ودمنة يجد ظاهرة الاستطراد واضحة فيه . على أن هناك علة لاستطراد الجاحظ ذكرها صراحة فى حيوانه إذ يقول : « قد صادف هذا الكتابُ منى حالات تمنع من بلوغ الإرادة فيه : أولُ ذلك العلة الشديدة ، والثانية قلة الأعوان ، والثالثة طول الكتاب . . فإن وجدت فيه خللا من اضطراب لفظ ، ومن سوء تأليف ، أو من تقطيع نظام ، ومن وقوع الشىء فى غير موضعه فلا تنكره بعد أن صورت لك حالى التى ابتدأت عليها كتابى »[٢] . فهو يعترف بأن مرضه أدخل الخلل على تأليف حيوانه ، ومرّ بنا أنه ألفه وهو مفلوج ، وألف بعده كتاب البيان والتبيين[٣] فظهر فيه الخلل والاستطراد بأوسع مما ظهرا فى كتاب الحيوان ، لا لسبب إلا لأن العلة طالت عليه ، وكأن ما أمضّه منها كان له أثره فى بلبلة أفكاره واضطرابها وحدوث كثير من النشاز فيها ، فهو برم بمرضه قلق ، وهو برم أيضاً بما يعرض فى بيانه لا يكاد يستقر عند موضوع يصفه ، وإنه ليقول فيه : « كان التدبيرُ فى أسماء الخطباء وحالاتهم وأوصافهم أن نذكر أسماء أهل الجاهلية على مراتبهم ، وأسماء أهل الإسلام على منازلهم ، ونجعل لكل قبيلة منهم خطباء ونقسم أمورهم باباً باباً على حدته ، ولكنى لما عجزت عن نظمه وتنضيده تكلفت ذكرهم فى الجملة »[٤] . فهو يقرّ بعجزه عن التنظيم والتنسيق لما كان من مرضه ، ولما كان أيضاً من قلة الأعوان كما يقول فى الحيوان ، ومن ثمّ كان من يقرأ فى كتبه يخيَّل إليه أنه لم يكن يعرف التركيز فى تأليفه ، إذ ما تزال الأفكار تندفع علينا من كل صوب فى غير نظام ولا سياق مطرد ، بل فكرة من هنا وفكرة من هناك فى صورة واضحة من التشعب والتشعث ، وقد ساعده على ذلك ثقافته الواسعة بجميع معارف عصره من هندية وفارسية ويونانية وإسلامية وعربية . وإن الإنسان ليعجب إذ يقرأ الصفحة فى حيوانه فيجد هذه الثقافات

---

(١) تحقيق ما للهند من مقولة ص ١٢ .

(٢) الحيوان ٤/٢٠٨ .

(٣) ذكر الجاحظ فى البيان أنه ألفه بعد الحيوان . انظر البيان والتبيين ٣/٣٠٢ .

(٤) البيان والتبيين ١/٣٠٦ .

كلها قد وُضع بعضها بجانب بعض، وكأنه حين كان يكتب — بل حين كان يملى كما سنرى بعد قليل — كانت تنطلق إليه سيول المعرفة من كل واد فيتركها تنزلق إلى آثاره بطبيعتها التى أطبقت بها عليه .

التلوين الصوتى

هذا هو العنصر الثالث فى كتابات الجاحظ ، فنحن لا نقرأ له أى عبارات من تأليفه حتى نجده يعنى بأصواته عناية تُفضى إلى ضروب مختلفة من الإيقاعات الصوتية ، ولم يكن يستعين على تجميل هذه الإيقاعات بشىء من البديع وألوانه ، بل كان يكتفى بها لتعبّر عن كل ما يريد من جمال لأسلوبه وطلاوة . وليس معنى ذلك أنه كان يستخدم السجع أو أسلوباً مقارباً منه ، فإن السجع لم يكن يصلح له فى تأليف كتبه ورسائله الطويلة ، لذلك عَدل عنه إلى ضروب من الإيقاعات ، وهى إيقاعات كان يستعين عليها بصور مختلفة من التكرار والترداد . واستمعْ إليه كيف يسهّل حيوانه[1] :

«جنّبك الله الشبهة ، وعصَمك من الحَيْرة ، وجعل بينك وبين المعرفة نسباً ، وبين الصدق سبباً ، وحبّب إليك التثبت ، وزيّن فى عينيك الإنصاف ، وأذاقك حلاوة التقوى ، وأشعر قلبك عِزَّ الحق ، وأودع صدرك بَرْدَ اليقين ، وطرد عنك ذُلّ اليأس ، وعَرَّفك مافى الباطل من الذلّة وما فى الجهل من القِلّة » .

وهذه هى النغمات الأولى فى الكتاب ، وعلى أساسها ينصبّ جميع النغم الذى نقرؤه فيه ، إذ نرى الجاحظ يحاول دائماً أن يُجَوِّدَ لفظه ، وهو لا يكتفى بذلك ، بل يسعى دائماً إلى إحداث ضروب من التوقيع ، وهو توقيع كان يلتمسه من معادلة ألفاظه معادلة لا تنتهى إلى السجع ، ولكنها تنتهى إلى هذا التوازن الصوتى الدقيق ، فكل جملة تقابل أختها فى موازين الجاحظ الموسيقية ، وهى موازين تحقق لصيغه هذا اللون من الجمال الموسيقى الذى كان يسميه القدماء ازدواجاً ونسميه إيقاعاً وتلويناً صوتياً بديعاً ، وهو تلوين كان يدفع الجاحظ دفعاً

---

(١) الحيوان ١/٣ .

إلى ضروب من التكرار والترادف ، واستمرّ مع الجاحظ فى الحيوان فسنراه يقول بعد هذه النغمات الأولى من الكتاب بقليل[١] :

« إن كل من التقط كتاباً جامعاً ، وباباً من أمّهات العلم مجموعاً كان له غُنْمه ، وعلى مؤلفه غرْمه ، وكان له نفعه ، وعلى صاحبه كَدّه ، مع تعرّضه لمطاعن البُغاة ، ولاعتراض المنافسين ، ومع عَرْضه عقلَه المكدود على العقول الفارغة ، ومعانيه على الجهابذة ، وتحكيمه فيه المتأوّلين والحسَدة . . وهذا كتابٌ تستوى فيه رغبة الأمم ، وتتشابه فيه العرب والعجم . ويشتهيه الفتيان كما يشتهيه الشيوخ ، ويشتهيه الفاتك ، كما يشتهيه الناسك ، ويشتهيه اللاعب ذو اللهو ، كما يشتهيه المجد ذو الحزم ، ويشتهيه الغُفْل ، كما يشتهيه الأريب ، ويشتهيه الغبي ، كما يشتهيه الفَطِن » .

وهكذا ينطلق الجاحظ فى كتاباته — على نحو ما نرى الآن فى حيوانه — بهذا النَّفَس الواسع المسترسل الذى لا يتعثّر ولا يتلجلج ، بل ينطلق فى هذا الفَيْض العذب ، وكأنما لا يعوقه فى طريقه عائق لا من لفظ ولا من تعبير ، وانظرْ إليه يقول بعد ذلك فى وصف الكتاب[٢] :

« الكتاب وعاءٌ مُلِئَ علماً ، وظَرْفٌ حُشِى ظَرْفاً ، وإناء شُحن مُزاحاً وجِدًّا ، وإن شئتَ كان أبْيَنَ من سَحبان وائل ، وإن شئت كان أعيا من باقل ، وإن شئت ضحكتَ من نوادره ، وإن شئت عجبت من غرائب فرائده ، وإن شئت أهمّتْك طرائفه ، وإن شئت أشْجَتْكَ مواعظه ، ومن لك بواعظ مُلْهٍ ، وبزاجرٍ مُغْرٍ ، وبناسك فاتك ، وبناطق أخرس ، وببارِدٍ حارّ ، ومن لك بطبيب أعرابى ، ومن لك برومى هندى ، وبفارسىّ يونانى ، وبقديم مولَّد ، وبميت ممتع ، ومن لك بشىء يجمع لك الأول الآخر ، والناقص والوافر ، والخفى والظاهر ، والشاهد والغائب ، والرفيع والوضيع ، والغثّ والسمين ، والشكل وخلافه ، والجنس وضده » .

---

(١) الحيوان ١/١٠ .

(٢) الحيوان ١/٣٨ وما بعدها .

وعلى هذا النمط يسوق الجاحظ عباراته ومزاوجاته ، وإن الإنسان ليخيل إليه كأنما سُخِّرت له ألفاظ اللغة تسخيراً ، فهو يختار منها ما يشاء ويهوى في غير عنت ولا تكلف ، بل في مهارة وحذق ، فإذا هو يصل إلى هذه الأصوات الفخمة أو قل هذه المركبات الموسيقية ، فالموسيقى أساسية في جواهر عباراته وأعراضها وما يَسِمُها في باطنها وظاهرها . وإذا أنت رجعت تحلل هذه المركبات وجدتها تنحل إلى ظاهرتين أصيلتين في كل ما يؤلف ، وهما : التقطيع الصوتي من طرف ، والتكرار والترداد الموسيقي من طرف آخر ، أما التقطيع فهو الذي يتيح له هذه المعادلات الصوتية التي تجعل العبارات تتعادل هذا التعادل الموسيقي البديع ، وكأنما قد فُصِّلت تفصيلاً وقسِّمت تقسيماً ، وأما التكرار والترداد فقد كانا شائعين في بيئة المتكلمين بسبب محاضراتهم ومناظراتهم ، وأيضاً فقد شاعا على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع عند وعاظ العصر الأموي ومن خلفوهم في العصر العباسي وعند عبد الحميد الكاتب وسهل بن هرون ، ولكن الشيء الذي يلفت حقًّا هو أن الجاحظ وسعهما إلى أبعد طاقة يمكن أن تحتملها الأساليب. وما من ريب في أن هذا التكرار يضفي على أساليبه ضروباً من الجمال ، إذ نراه يستعين به على ما يريد من تقطيعات وتوقيعات صوتية ، فإذا الفكرة لا تؤدَّى في عبارة واحدة ، ولكن في عبارتين أو أكثر ، لا لسبب إلا لأن الجاحظ يريد لها أداءً موسيقيًّا بجانب أدائها المعنوي .

ومن يتابع درس الجاحظ يعرف أن هناك سبباً مهمًّا لتكراره في كتبه وترداده ، وهو أنه لم يكن يكتب بل كان يملي ، وقد ذكر ذلك صراحة في إحدى رسائله لابن الزيات إذ قال له : « إن الورَّاق أصبح لا يخطمطرا »[1] ، ويذكر ياقوت أن هذا الوراق كان يسمى زكريا بن يحيى[2] ، وإن في هذا ما يدل على أن الجاحظ لم يكن يكتب كتبه ورسائله منذ ابن الزيات المتوفى عام ٢٣٣ هـ ، بل كان يملي على شخص أو أشخاص لما قلمنا من مرضه ، وطبع هذا الإملاء كتبه بطابع المحاضرة ، ومن ثم طبعها بطابع التكرار والترادف ، كما طبعها

(١) مجموع رسائل الجاحظ ص ٧٧ . (٢) معجم الأدباء ١٦/١٠٦ .

بطابع كتب الإملاءات من حيث الخلل والاستطراد والإيجاز فى بعض الأشياء المهمة ، والإطناب والتفصيل فى بعض الأشياء التافهة . ومهما يكن فقد كان الجاحظ يعنى بأساليبه عناية توفر لها ضروباً من التقطيع الصوتى ، وقد ذهب يستعين فى ذلك بتكراره وترداده حتى تستوفى أساليبه كل ما يمكن من هذا التلوين الصوتى الذى يكسب تعبيره جمالاً خاصًّا يتفوق به على جميع الكتّاب فى عصره .

التلوين العقلى

ربما كان هذا العنصر أهم العناصر الأربعة التى تكوّن فن الجاحظ وصنعته ، إذ كان يشفع كتابته دائماً بضروب من التحاسين العقلية ، وهى ليست تحاسين فنية فى أصلها ، إنما هى تحاسين منطقية وفلسفية ، واستطاع الجاحظ فى رسائله وكتبه أن يحولها إلى تحاسين فنية خالصة أو تكاد ، إذ كان يدخلها فى جميع أوعيته الصوتية . وطبيعى أن تظهر هذه التحاسين عند الجاحظ لأنه كان متكلماً ، ووصف هو نفسه المتكلمَ لعصره فقال كما مرّ بنا فى غير هذا الموضع : « لا يكون المتكلم جامعاً لأقطار الكلام متمكناً فى الصناعة ، يصلح للرياسة ، حتى يكون الذى يحسن من كلام الدين فى وزن الذى يحسن من كلام الفلسفة » ، ولعل من الطريف أنه أضاف الفلسفة فى حيوانه إلى بعض المتكلمين فقال : « ورأيت ناساً من فلاسفة المتكلمين »[١] وقد قال فى الحيوان صراحة إن هذا الكتاب « أخذ من طُرف الفلسفة[٢] ، وإضافة الطُّرف إلى الفلسفة إحساس من الجاحظ بما تدخله فلسفة العقل على تعبير صاحبه من تحاسين وتلاوين ، ولعل ذلك ما جعله يعد المذهب الكلامى من ألوان البديع[٣] ، وهو لا يريد بهذا المذهب إلا ما أدخله المتكلمون من طرق جدل وحوار وسفسطة وأدلة وبراهين ومقدمات وأقيسة . وانظرْ فى الحوار الطويل الذى رواه فى الحيوان عن النظام ومعبد فى تفضيل الكلب

(١) الحيوان ٢/١٤٠
(٢) الحيوان ١/١١ .
(٣) البديع لابن المعتز (طبع كراتشقوفسكى) ص ٥٣ .

على الديك أو العكس تَرَ حوارهما يمتد فى عشرات الصحف ، وقد استعان كل منهما بما يمكن من براهين حسية وعقلية على التدليل لرأيه ، وإن الإنسان ليخيل إليه كأن كلاً منهما قد استعار شخصية الحيوان الذى يدافع عنه ، وهو لذلك يتسلح لخصمه بكل ما يستطيع العقل أن يسعفه به من براهين صحيحة وغير صحيحة فى افتنان وبراعة يدلان على مبلغ ما فتقت الفلسفة من عقول المتكلمين وألسنتهم .

وقد تربّى الجاحظ فى هذه البيئة على يد أستاذه النظّام فأخرجه لَسِناً جدلاً يعرف كيف يحاور ويداور وكيف يستعين بالمنطق الصحيح ، وكيف يستعين بالمنطق السقيم ليدعم رأيه ، وينصر فكرته ، وقد تشبث بطريقة الحوار والجدل وما يتعلق بهما من مغالطة وسفسطة ، فتكلم كثيراً عن محاسن الأشياء ، ثم عاد فتكلم عن مساويها ، ولعل خير ما يفسر ذلك كتاب المحاسن والأضداد الذى ينسب إليه ، وقد لا يكون هذا الكتاب له ، ولكن من يقرأ فيه يؤمن بأنه إما أن يكون من صنع الجاحظ نفسه أو من صنع شخص استمده من مغالطات الجاحظ فى كتبه .

والجاحظ كما يعتمد على المغالطة أحياناً نراه أيضاً يعتمد على صحة الأدلة وصدق المقدمات أحياناً أخرى ، بل إن هذا هو الغالب عليه ، وقد تلوّم فى حيوانه من لا يعنون بصحة مقدماتهم[1] ، وعاب النظّام كما مرّ بنا بأنه لا يصحح الأصل الذى يبنى عليه قياسه ، وقد جعله ذلك يمتاز من كتّاب عصره باستخدام المنطق استخداماً واسعاً فى تضاعيف أسلوبه ، فهو دائماً يعرض أفكاره فى صورة حجاج يقوم على براهين وأدلة ومقدمات وأقيسة ، ولا غرابة ، فقد كان يعتد بذلك كلون عباسى بديع ينبغى أن يدخل فى دوائر النثر وأن تحلّى نماذجه به حتى تنبسط الكتابة ويتسع التعبير فيها اتساعاً يرفده العقل الدقيق والمنطق الوثيق ، وإن الجاحظ ليتشبث بذلك فى أبلغ صورة يمكن العقل أن يتصور بها عَبّاسِيّاً فى القرنين الثانى والثالث يريد أن يسيطر المنطق على كل ما يكتب ، بل أيضاً على كل ما يعمل

---

(١) الحيوان ٣/٣٧٩ .

فقد روى الرواة أنه اجتمع مع يوحنا بن ماسويه على مائدة بعض الوزراء، وكان فى جملة ماقُدِّم مَضيرة عقب سمك، فامتنع يوحنا من الجمع بينهما، فقال له الجاحظ: « أيها الشيخ لايخلو أن يكون السمك من طبع اللبن أو مضاداً له، فإن كان أحدهما ضد الآخر فهو دواء له وإن كانا من طبع واحد فلنحسب أنا قد أكلنا من أحدهما إلى أن اكتفينا »، فقال يوحنا: والله ما لى خبرة بالكلام ولكن كُلْ يا أبا عثمان، وانظر ما يكون فى غد، فأكل الجاحظ انتصاراً لدعواه، ففُلج فى ليلته، فقال: هذه والله نتيجة القياس المحال »[1]. وإن هذه القصة لترمز إلى عنايته بالمنطق فى كل ما يتصل به من قول وفعل. ونحن لا نبعد إذا قلنا إنه أهم كاتب فى العصر العباسى الأول حكَّم المنطق فى كل ما يصنع، فقد كان يعتمد عليه اعتماداً بالغاً فى جميع كتاباته، واقرأ له هذه القطعة التى يتحدث فيها عن الخير والشر وأنهما ضروريان لصلاح الكَوْن[2]:

« اعلم أن المصلحة فى أمر ابتداء الدنيا إلى انقضاء مُدَّتها امتزاج الخير بالشر، والضارّ بالنافع، والمكروه بالسار، والضَّعة بالرفعة، والكثْرة بالقلة، ولو كان الشرُّ صِرْفاً هلك الخلق، أو كان الخير مَحْضاً سقطت المحنة. وتقطعت أسباب الفكرة، ومع عدم الفكرة يكون عدمُ الحكمة، ومتى ذهب التخيير ذهب التمييز، ولم يكن للعالم تثبتٌ وتوقف وتعلم، ولم يكن علم، ولا يُعْرَفُ باب تبيُّن، ولا دَفْعُ مضرّة، ولا اجتلاب منفعة، ولا صَبْرٌ على مكروه، ولا شكر على محبوب، ولا تفاضلٌ فى بيان، ولا تنافس فى درجة، وبطلتْ فرحةُ الظفر وعِزّ الغلبة، ولم يكن على ظهرها مُحِقٌّ يجد عزّ الحق، ومبطل يجد ذلّة الباطل، وموقن يجد بَرْدَ اليقين، وشاكّ يجد نَقْصَ الحيرة وكَرْبَ الوجوم، ولم تكن للنفوس آمال، ولم تتشعبها الأطماع، ومن لم يعرف كيف الطمع لم يعرف اليأس، ومن جَهِلَ اليأس، جهل الأمن، وعادت الحالُ من الملائكة الذين هم صفوة الخلق، ومن الإنس الذين فيهم الأنبياء والأولياء حال السَّبُعِ والبهيمة، وإلى حال الغباوة

---

(١) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ١/١٨١.

(٢) الحيوان ١/٢٠٤.

والبلادة وإلى حال النجوم فى السُّخْرة فإنها أنقص من حال البهائم فى الرَّتْعَة ، ومن هذا الذى يسره أن يكون الشمس والقمر والنار والثلج أو بُرْجاً من البروج أو قطعة من الغيم ، أو يكون المجرّة بأسرها ، أو مكيالاً من الماء ، أو مقداراً من الهواء . . وأين تقع لذةُ البهيمة بالعَلوفة ولذة السبع بلطْع الدم وأكْل اللحم ، من سرور الظفر بالأعداء ، ومن انفتاح باب العلم بعد إدمان القَرْع ؟ وأين ذلك من سرور السُّؤْدد ومن عِزّ الرياسة ؟ ولو استوت الأمور بطل التمييز ، وإذا لم تكن كلفةٌ لم تكن مثوبة . . ولو كان الأمر على ما يشتهيه الغرير والجاهل بعواقب الأمور لبطل النظر وما يَشحذ عليه ، وما يدعو إليه ولتعطلت الأرواح من معانيها والعقول من ثمارها ، ولعدمت الأشياءُ حظوظها وحقوقها ، فسبحان من جعل منافعها نعمة ، ومضارها ترجع إلى أعظم المنافع ، وقسّمها بين مُلِذٍّ ومؤلم ، وبين مؤنس ومرحش ، وبين صغير حقير ، وجليل كبير ، وبين عدو يرصدك ، وبين عقل يحرسك ، وبين مسالم يمنعك ، وبين معين يعضُدك ، وجعل فى الجميع تمام المصلحة ، وباجتماعها تمّ النعمة ، وفى بطلان واحد منها بطلان الجميع ، قياساً قائماً وبرهاناً واضحاً فإن الجميع إنما هو واحدٌ ضُمّ إلى واحد ، وواحد ضُمّ إليهما ، ولأن الكل أبعاض ، ولأن كل جثة فمن أجزاء ، فإذا جوّزت رفع واحد والآخر مثله فى الوزن ، وله مثل علته وحظه ونصيبه ، فقد جوّزت رفع الجميع ، لأنه ليس الأول بأحق من الثانى فى الوقت الذى رجوت فيه إبطال الأول ، والثانى كذلك والثالث والرابع حتى تأتى على الكل وتستفرغ الجميع » .

أرأيت إلى هذا الدفاع القوى عن ضرورة بقاء الشر فى الكون ؟ وإنه لدفاع يستمده الجاحظ من التفكير الدقيق فى حقائق الكون ، وهو تفكير يقوم على المنطق والاستدلال والقياس كما يقوم على التأثر ببعض آراء المتكلمين الذين يرفضون الجبر والتسخير فى الحياة ويضعون مكانهما الاختيار والتمكين ، وهذا كله يُبْسَط فى ضروب من تلاوين الصوت وتحاسينه ، وإنها لضروب تشيع فى أسلوب منطقى منقطع القرين . ومن هذين المفتاحين ؛ جمال الصوت وجمال المنطق ، تسقط النغمات التى تميز الجاحظ فى جميع فنه وصنعته ، إذ ما يزال

يتداخل التفكير العقلى وما يُشْفَعُ به من قدرة على البرهان والاستدلال مع التفكير الفنى وما يشفع به من قدرة على تقطيع الصوت، وما ينطوى فى هذا التقطيع من تكرار وترداد ، وبذلك يلتئم هذا الفن الجاحظى الذى يشيع فيه جمال العقل كما يشيع فيه جمال الصوت. وارجعْ إلى هذه القطعة الجميلة فإنك ترى الجاحظ يحسن التدليل على فكرته التى يذهب فيها إلى أن العالم يتألف من الخير والشر جميعاً ، بحيث إذا سقط الشر منه سقط الحائط الذى يؤلفه ، وكذلك الشأن إن سقط الخير ، وإن الجاحظ ليجعل القضية قضية العقل ، فإن تغيير الكون عما هو ، يجعلنا نفقد آلة التفكير ، ومتى فقدناها أصبحنا لا نستطيع التأمل فى علم ، ولا الشعور بشىء ملذ أو مؤلم ، إذ نصير كالحيوان فى الرتعة ، بل لقد نتحول إلى الجماد فى السخرة: « ومن هذا الذى يسره أن يكون الشمس والقمر والنار والثلج أو بُرْجاً من البروج أو قطعةً من الغيم؟» إن الكون يجب أن يستمر كما هو: خير ونفع ، وشر وضر وإن كل جزء من أجزاء الخير ، ومثله كل جزء من أجزاء الشر ، يجب أن يظل كما هو لأن العالم يتألف من جميع هذه الأجزاء وما الجميع؟ «إنما هو واحد ضُمَّ إلى واحد ، وواحد ضم إليهما ، ولأن الكل أبعاض ، ولأن كل جثة فمن أجزاء، فإذا جوزت رفع واحد والآخر مثله فى الوزن ، وله مثل علته وحظه ونصيبه ؛ فقد جوزت رفع الجميع ، لأنه ليس الأول بأحق من الثانى فى الوقت الذى رجوت فيه إبطال الأول ، والثانى كذلك ، والثالث ، والرابع حتى تأتى على الكل وتستفرغ الجميع » فأىُّ عقل هذا الذى يكتب بتلك المقدرة على توليد الأفكار من جهة والإدلاء بكل ما يمكن من حجج وبراهين من جهة أخرى؟ إنه عقل الجاحظ وهو العقل الذى جعل ابن العميد — كما مر بنا — يقول : « إن كتب الجاحظ تعلم العقل أولا والأدب ثانياً » . فالعقل عند الجاحظ هو أساس صنعته الذى يستمد منه أدلته كما يستمد منه توليده للأفكار والمعانى ، وأيضاً فإنه يستمد منه قياسه ومقابلاته ، وقد كان مشغوفاً بالمقابلة فى معانيه وأفكاره شغفاً شديداً، وإن الإنسان ليخيل إليه كأنما سُخِّر العقل بجميع مقوماته للجاحظ ، وهو يختار ما يشاء من هذه المقومات فى رسائله وكتبه، ولعل ذلك

ما جعل المأمون يقول له وقد قرأ كتبه فى الإمامة : « قد كان بعض من نرتضى عقله ، ونصدّق خبره ، خبّرنا عن هذه الكتب بإحكام الصنعة وكثرة الفائدة ، فقلت له : قد تُرْبى الصفة على العيان ، فلما رأيتها رأيت العيان قد أَرْبَى على الصفة فلما فَلَيْتُها أربى الفَلْىُ على العيان كما أربى العيان على الصفة »[١] . ونحن مهما وصفنا من عقل الجاحظ وما يشفع به كتابته من تلاوينه وتحاسينه ، فإن ذلك لن يكون شيئاً بجانب ما يحسه القارئ له حين يتصفح أعماله ، ويقف على مدى استعانته بالعقل فى تأليفها وصوغها ، والحق أن هذا عمل أوسع من أن نحيط به فى صفحات معدودة ، وغاية ما يمكننا هو أن نجمل هذا الصنيع فى أن الجاحظ كان يُدمج إدماجاً بديعاً بين التلوين الصوتى والتلوين العقلى فى آثاره ، فإذا هى تصور طرافة التفكير فى أعلى صورة كما تصور طرافة الصوت ، وما ينساق مع هذه الطرافة من تكرار وترداد كان يستعين بهما دائماً على تدبيج أساليبه وتحبيرها ؛ وإنهما ليتجليان دائماً فى كل ما يملى ويكتب كما يتجلى جمال التفكير وجمال التعبير .

٨

رسالة التربيع والتدوير

ونحن نقف عند رسالة للجاحظ تجمع بين دفتيها محاسن التفكير الدقيق والتعبير الأنيق ، وهى رسالة أنشأها فى هجاء أحمد بن عبد الوهاب أحد أصحاب محمد بن عبد الملك الزيات[٢] وقد وصفه بأنه من بجيلة ومن أصحاب صالح بن على وسليمان بن وهب وندماء جعفر الخياط[٣] ، وقال إنه من الرافضة المشبّهة[٤] ، ونعته بأنه « يعد أسماء الكتب ولا يفهم معانيها ، ويحسد العلماء من غير أن يتعلق فيهم بسبب ، وليس

---

(١) البيان والتبيين ٣/٣٧٤ .
(٢) أغانى (طبع الساسى) ٢١/٣٢ .
(٣) رسائل الجاحظ (طبع الساسى) ص ١٠٠ .
(٤) رسائل الجاحظ ص ١٤٢ .

فى يده من جميع الآداب إلا الانتحال لاسم الأدب »[١] . وذكر أنه كان يخاشنه ويطاوله[٢] . ومن أجل هذه المخاشنة والمطاولة وما ركب فيه من الحسد ألّف له هذه الرسالة يسأله فيها عن بعض معارف عصره المشكلة سواء فى المنطق والفلسفة ، أم فى الكيمياء والصنعة ، أم فى الإنسان والحيوان ، أم فى تاريخ العرب وتاريخ غيرهم من الأمم ، وهو ينهى هذه الأسئلة الكثيرة التى امتدت فى خمسين صحيفة من القطع الكبير بقوله : « وقد سألتك وإن كنت أعلم أنك لاتحسن من هذا قليلا ولا كثيراً ، فإن أردت أن تعرف حقّ هذه المسائل وباطنها وما فيها خرافة وما فيها محال ، وما فيها صحيح وما فيها فاسد ، فألزم نفسك قراءة كتبى ولزوم بابى [٣] . وحقًّا إن من يتصفح الرسالة يجد أن كثيراً مما عرض له الجاحظ فيها ذكره فى حيوانه ، ولعل فى هذا ما يدل على أنها ألفت بعد كتاب الحيوان : أى فى أوقات مرضه وعلته ، ويشهد لذلك أننا نجده يُنحى على أحمد بن عبد الوهاب باللائمة على ما يدعيه من علم بالحيوان وأنه يعرف فى الخفاش سبعين أعجوبة[٤] ، وأيضاً فقد تحدث فيها عن ابن الزيات الذى قدم له كتاب الحيوان بصيغة الماضى [٥] ، مما يدل على أن عهده كان قد انقضى حين كتابة هذه الرسالة ، والمسألة لا تحتاج كل هذا الاستنتاج ، لأن الرسالة مبنية على سنة الاستطراد التى عرفناها للجاحظ ، والتى زعمنا أنها جاءت فى الغالب نتيجة لعلته وعجزه عن ترتيب كتبه ورسائله التى ألفها حينئذ ، وهو يستهلها على هذا النمط [٦] :

« كان أحمدُ بن عبد الوهاب مُفْرطَ القِصَر ويدعى أنه مفرط الطول ، وكان مربّعاً وتحسبه لسعة جُفْرته واستفاضة خاصرته مدوّراً ، وكان جَعْدَ الأطراف قصير الأصابع ، وهو فى ذلك يدّعى السَّباطة والرشاقة ، وأنه عَتيق الوجه ،

---

(١) رسائل الجاحظ ص ٨٣ .
(٢) نفس المصدر ص ٩٥ .
(٣) نفس المصدر ص ١٤٢ .
(٤) نفس المصدر ص ١٤٠ .
(٥) نفس المصدر ص ١٠٩ .
(٦) ارجع إلى الرسالة بأكملها فى نفس المصدر السابق وفى طبعتها الأخيرة بتحقيق شارل بلات .
(٧) الجفرة : جوف الصدر .

أخمص[١] البطن ، معتدل القامة ، تام العظم ، وكان طويل الظهر ، قصيرَ عظم الفخذ ، وهو مع قِصَر عظم ساقه يدعى أنه طويل الباد[٢] ، رفيع العماد ، عادىَ القامة ، عظيم الهامة ، قد أعطى البسطة فى الجسم ، والسعة فى العلم ، وكان كبير السن متقادم الميلاد ، وهو يدّعى أنه معتدل الشباب حديث الميلاد » .

ونحن منذ هذه السطور الأولى للرسالة نحس أننا بإزاء فن جديد فى الهجاء يستعين فيه صاحبه بضروب من المفارقات ، فأحمد بن عبد الوهاب مفرط القصر ويدعى أنه مفرط الطول ، وهو مربع وتحسبه لسعة جوف صدره واستفاضة خاصرته مدوّراً ثم هو جَعْد الأطراف قصير الأصابع ومع ذلك يدعى السَّباطة والرَّشاقة ، وأيضاً فإنه طويل الظهر قصير عظم الفخذ ، ويدعى أنه طويل الباد رفيع العماد ، عادى القامة عظيم الهامة ، وفى هذا كله مناقضات ومفارقات مختلفة ، ومن هذه المناقضات والمفارقات يستمد الجاحظ هجاءه لأحمد ابن عبد الوهاب وقد استطاع أن ينفذ من ذلك إلى تشويهه تشويهاً ربما كان يتفوق فيه على أصحاب فن التصوير الساخر « الكاريكاتورى » فى العصر الحديث ، إذ نراهم يشوّهون الأجسام بطرق مختلفة ، عمادُها بعض الحقائق المادية فيها وإنهم ليتعلقون بهذه الحقائق : يكبّرونها ، ويستمدون منها ما يشاءون من هزل وسخرية . وكذلك كان الجاحظ فى تلك الرسالة هَجّاءً ساخراً يعتمد على جسم أحمد بن عبد الوهاب وما يَسِمه من قصر وتبعُّج ليستخرج ما يريد من هزله ؛ فهو تارة صاحب أصابع قصيرة جعدة كأصابع الحيوان وتارة هو طويل الظهر ، قصير عظم الفخذ . وهو لا يكتفى بتشويه جسمه ، بل نراه يعمد أيضاً إلى تشويه عقله بواسطة ما يعرضه من أسئلة يهزأ به فيها كما يهزأ بتفكيره وكل ما يتصل به وهو يستعين على ذلك كله بفكرة الطول والقصر والتربيع والتدوير يستمد منهما كل ما يمكن من مفارقات ومناقضات ، فتارة يدعى له الطول فى الباطن ، وتارة ثانية يصفه بالقصر ، وتارة ثالثة ينفيهما عنه ، ويدعى له التربيع والتدوير ، ساخراً من جسمه وشكله .

---

(١) أخمص : ضامر .

(٢) الباد : باطن الفخذ .

فى هذا ما يجعلنا نفهم لماذا سمّيت الرسالة باسم رسالة التربيع والتدوير ، فقد بناها الجاحظ على هذه الفكرة التى نؤمن بأنه استعارها من فكرة الأوساط اليونانية المعروفة فى الأخلاق ، لكن بعد أن حوّرها وعدلها على هذا النحو ، فإذا هى لا تثار فى الأخلاق وإنما تُثار فى الأجسام وفى هجاء أحمد بن عبد الوهاب . وقد كان الجاحظ يعجب إعجاباً شديداً بهذه الفكرة ، وذكرها مراراً فى كتبه ورسائله ، بل ذكرها فى هذه الرسالة نفسها ، إذ يقول لابن عبدالوهاب : « اعلم أن الحسد اسم لما فضل عن المنافسة ؛ كما أن الجبن اسم لما فضل عن التوقّى ، والبخل اسم لما قَصَّر عن الاقتصاد ، والسَّرَف ما جاوز الجود ، وأنت — جُعلت فداك — لا تعرف هذا ، ولو أدخلتك الكور ، ونفخت عليك إلى يوم يُنْفَخُ فى الصور ». وما من ريب فى أن الجاحظ عبَّر عن طرافة مدهشة حين استطاع أن يستغل هذه النظرية اليونانية فى تعبيره الفنى هذا الاستغلال القيِّم ، فإذا به يخرجها من دوائرها الفلسفية إلى دوائره هو الفنية ، مستعيناً على ذلك بمجاميع من الأخطاء وبما يمتاز به من مرونة فى الجدل والحوار والسفسطة وما يُطْوَى فى ذلك من ضروب تناقض وتقابل ، واستمعْ إليه يعرض ابن عبد الوهاب على هذه الفكرة فيقول :

« وبعد فأنت — أبقاك الله — فى يدك قياس لا ينكسر ، وجواب لاينقطع ، ولك حَدٌّ لا يُفَلُّ ، وغَرْبٌ لاينثنى ، وهو قياسك الذى إليه تُنْسَبُ ، ومذهبك الذى إليه تذهب : أن تقول : وما علىّ أن يرانى الناس عريضاً ، وأكون فى حكمهم غليظاً ، وأنا عند الله طويل جميل ، وفى الحقيقة مقدود رشيق ، وقد علموا — أبقاك الله — أن لك مع طول البادِ راكباً طول الظهر جالساً ، ولكن بينهم فيك — إذا قمت — اختلاف ، وعليك لهم — إذا اضطجعت — مسائل ، ومن غريب ما أعطيت ، وبديع ما أوتيتَ أنا لم نر مقدوداً واسع الجُفْرة غيرك ، ولا رشيقاً مستفيض الخاصرة سواك ، فأنت المديد ، وأنت البسيط ، وأنت الطويل ، وأنت المتقارب ، فيا شعراً جمع الأعاريض ، ويا شخصاً جمع

---

(١) الكور : مجمرة الحداد .

الاستدارة والطول ! بل ما يهمك من أقاويلهم ، ويتعاظمك من اختلافهم ، والراسخون فى العلم والناطقون بالفهم يعلمون أن استفاضة عَرْضك قد أدخلت الضَّيم على ارتفاع سَمْكك ، وأن ما ذهب منك عرضاً قد استغرق ما ذهب منك طولا ، ولئن اختلفوا فى طولك لقد اتفقوا فى عرضك ، وإذ قد سلموا لك بالرغم شطراً ، ومنعوك بالظلم شطراً ، فقد حصلت ما سلموا ، وأنت على دعواك فيما لم يسلموا ! ولعمرى إن العيون لتخطئ وإن الحواسّ لتكذب ، وما الحكم القاطع إلا للذهن ، وما الاستبانة الصحيحة إلا للعقل إذ كان زماماً على الأعضاء ، وعياراً على الحواس... ولو لم يكن فيك من العجب إلا أنك أول من تعبده الله بالصبر على خطأ الحس ، وبالشكر على صواب الذهن لقد كنت فى طولك آية للسابلين وفى عرضك مناراً للمضلين . وقد تظلّم المرْبُوعُ مثلى من الطويل مثل محمد ومن القصير مثل أحمد . . . والمرْبوعُ — بحمد الله — اعتدلت أجزاؤه فى الحقيقة كما اعتدلت فى المنظر ، فقد استغنى بعِزّ الحقيقة عن الاعتذار ، وبحكم الظاهر عن الاعتلال ! وقد سمعنا من يذم الطوال كما سمعنا من يزرى على القصار ولم نسمع أحداً ذم المربوع ولا أزْرى عليه ، ولا وقف عنده ولاشك فيه . . وبعد فما يحوجك إلى هذا ، وما يدعوك إليه ، وأشباهك من القصار كثير ، ومن ينصرك منهم غير قليل ، وقد رأيتك زماناً تحتج بالنعمان بن المنذر وبضَمْرة .. وبرجال ناهيك بهم رجالا ، وبأعلام كفاك بهم أعلاماً ، ورأيتك تقول : إن كان الفضل فى النكاية وفى الشدة والصلابة فصغار كل شىء أشد ضرراً وأدق مدخلا ، وأظهر قوة وجلداً ، كالحجارة أصلبها الحصى ، وكالحيات أقتلها الأفعى .. وقلت إن كان الفضل فى العدد فمنا يأجوج ومأجوج ومنا الذَّرُّ والفَراش ، ومنا الدعاميص والبعوض والرمل والتراب وقطر السحاب» .

وعلى هذا النحو يسوق الجاحظ حديثه فى الرسالة متلاعباً بفكرة الطول والقصر وما ينبغى أن يكون من التوسط بين الطرفين ، وإنه ليتسع بالحوار والجدل فى ذلك اتساعاً شديداً ، فإذا هو يقف تارة فى جانب القصر يحتج له ، وتارة يقف فى جانب الاعتدال ، وقد يقف فى جانب الطول ، يُدلى فى كل

جانب بالحجج والبراهين كأنه يناقش مسألة علمية دقيقة .وتهديه هذه المناقشة دائماً إلى فكرة التربيع والأخذ به حتى لايخرج مهجوّه عن حدود الاعتدال إلى حدود التقصير أو التبذير ،وكأنى بالجاحظ أحال أحمد بن عبد الوهاب إلى مشكلة من مشاكل الاعتزال أو قل إلى مشكلة من مشاكل الفلسفة ، إذ نراه يحقق فيه مسألة التوسط بين الطرفين تحقيقاً دقيقاً ، وهو تحقيق يطوى كل ما يريد من سخرية به وتهكم عليه إذ يتناوله مرة بالطول ومرة بالعرض وهو فى أثناء تناوله يمده تارة ويقصره تارة أخرى وتارة ثالثة يبعّجه فى مناظر تستخرج منا الضحك على ما يصنعُ بصاحبه من تشويه ، وانظرْ إليه يحتج لطرفى الطول والقصر فيقول :

«وقلت : والناس وإن قالوا فى الحسن كأنه طاقة ريحان ،وكأنه خوط[1] بان ،وكأنه قضيب خَيْزُران ، وكأنه غُصْن بان ،وكأنه رُمْحٌ رُدَيْنِىٌّ ،وكأنه صفيحة يمانية ، وكأنه سيف هُنْداوانى ،وكأنها جانّ ،وكأنها جَدْل عَنان[2] ، فقد قالوا كأنه المُشْتَرى[3] ، وكأن وجهه دينار هِرَقْلِى ، وما هو إلا البحر ،وما هو إلا الغيث ، وكأنه الشمس ، وكأنها دارة القمر ، وكأنها الزهرة ، وكأنها درة ،وكأنها غمامة ، وكأنها مهاة ، فقد تراهم وصفوا المستدير العريض بأكثر مما وصفوا به القضيف[4] والطويل . وقلت : وجدنا الأفلاك وما فيها ، والأرض وما عليها ، على التدوير دون التطويل ، وكذلك الورق والثمر والحب والثمر والشجر ، وقلت : والرمح إن طال فإن التدوير عليه أغلب ، لأن التدوير قائم فيه موصولا ومفصلا ؛ والطول لايوجد فيه إلا موصولا ، وكذلك الإنسان وجميع الحيوان ، وقلت : ولا يوجد التربيع إلا فى المصنوع دون المخلوق ،وفيما أكره على تركيبه دون ما خُلِّىَ وسُوِّمَ[5] وطبيعته ، وعلى أن كل مربع ففى جوفه مدور ، فقد بان المدوّر بفضله وشارك المطوّل فى حصته . ومن العجب أنك تزعم أنك طويل فى الحقيقة ، ثم تحتج للاستدارة والعرض فقد أضربت عما عندَ الله صَفْحاً ، ولهجتَ بما عند الناس » .

---

(١) الخوط : الغصن الناعم . البان : شجر (٣) المشترى : كوكب .
(٢) جدل عنان : أى مفتولة فتل العنان وهو (٤) القضيف : الضامر .
زمام الدابة كناية عن أنها مجدولة الخلق طويلة . (٥) سوم : ترك .

أرأيت إلى هذا الاحتجاج ؟ إنه من أهم سمات الجاحظ فى كل ما يؤلف ويكتب ويملى إذ نرى عقله دائماً مشغوفاً بالأدلة يسوقها على ما يقوله فى هذا النحو البديع من الجدل والبحث . ألا تراه يحاول أن يتتبع الشعراء والأدباء فى نعتهم للأشياء بالحسن والجمال ليرى هل ما يضيفون إليه هاتين الصفتين من باب القصار أو هو من باب الطوال أو هو منهما جميعاً ؟ والجاحظ لا يكتفى بذلك فى احتجاجه وجدله ، إذ نراه يعمد إلى المغالطة عن طريق الرمح ، لأنه أجزاء موصول بعضها ببعض ، وإذن فالتدوير عليه أغلب ! ليس الرمح طويلا ، وإن تراءى ذلك فى الظاهر ، إنما هو مدور ، أما ما قد يبدو من طوله فغير صحيح ، لأنه يخالف الحقيقة التى تُطْوَى وراءه ، وكذلك قِصَرُ أحمد بن عبد الوهاب غير صحيح ، لأنه يخالف الطول الذى يُطْوَى خلفه وينبغى أن لا نحكم بالظاهر بل ينبغى أن نحكم بالباطن وما وراء الظاهر !

وإذاً فليس بين أيدينا حقيقة يمكن أن نطمئن إليها ، وكل آرائنا التى نكوّنها عن بعض الأشياء وأنها طويلة أو قصيرة قابلة للنقض فى رأى الجاحظ كى يرضى ابن عبد الوهاب ويمده بأسباب من القول للاحتجاج على طوله المستتر وراء قصره ، وهذا هو معنى أنه يلهج بما عند الناس ويترك ما عند الله . وما من ريب فى أن الجاحظ وصل إلى هذا كله عن طريق المغالطة التى يسوقها فى الرمح إذ يقول إنه يبدو طويلا ، وهو فى حقيقة الأمر قصير ، أو هو كما يقول الجاحظ مدوّر ، وذلك لسبب بسيط وهو أنه يتألف من مدورات ! وعلى هذا النحو ينتهى الجاحظ إلى أن كل مربع فهو فى جوفه مدور . وواضح أنه يعتمد فى ذلك كله على السفسطة ، وهو ينفذ منها إلى عرض صاحبه على فكرة القبح والحسن ، فإذا هو يصفه بالقبح تارة وما يلبث أن يصفه بالحسن تارة أخرى ، وجاء فى ذلك بطُرف لا تُحْصَى على شاكلة قوله :

« ولو لم يكن لك إلا أنا لا نستطيع أن نقول فى الجملة ، وعند الوصف والمدحة : هو أحسن من القمر ، وأضوأ من الشمس وأبهى من الغيث . وأنا لا نستطيع أن نقول فى التفاريق : كأن عنقه إبريق فضة ، وكأن قَدَمه لسانُ حية ، وكأن عينه

ماويّة[١] ، وكأن بطنه قُبْطية[٢] ، وكأن لسانه ورقة ، وكأن أنفه حَدُّ سيف ، وكأن حاجبه خُطّ بقلم ، وكأن لونه الذهب ، وكأن عوارضه البَرَدُ ، وكأن فاه خاتَم ؛ وكأن جبينه هلال ولهو أطهرُ من الماء ، وأرق طباعاً من الهواء ولهو أمضى من السَّيْل ، وأهدى من النجم ، لكان فى ذلك البرهان النيِّر ، والدليل البَيِّن ، وكيف لا يكون كذلك وأنت الغاية فى كل فضل ، والنهاية فى كل شكل ، وأما قول الشاعر :

يَزيدكَ وجهُهُ حسْنًا إذا ما زدتَهُ نَظَرًا

وقولُ الدمشقيين : (ما تأملنا قط تأليف مسجدنا وتركيب محرابنا وقُبَّة مصلاّنا إلا أثار لنا التأمل واستخرج لنا التفرُّس غرائبَ حسن لم نعرفها وعجائب صنعة لم نقف عليها ، وما ندرى أجوهرُ مقطَّعاته أكرم فى الجواهر ، أم تنضيد أجزائه فى تنضيدات الأجزاء) فإن ذلك معنى مسروق منى فى وصفك ، ومأخوذ من كتبى فى مدحك . . ومن يطمع فى عَيْبك ، بل من يطمع فى قدرك ، وكيف وقد أصبحتَ وما على ظهرها خَوْدٌ[٣] إلا وهى تتعثَّر باسمك ولا قينة إلا وهى تغنى بمدحك ، ولا فتاة إلا وهى تشكو تباريحَ حُبِّك ، ولا محجوبة إلا وهى تثقب الخروق لمرِّك ، ولا عجوز إلا وهى تدعو لك ، ولا غيور إلا وقد شقّ بك ، فكم من كبد حرّى مُنْضَجة ومصدوعة مُفْرَثة[٤] ، وكم من حشا خافق وقلب هائم ، وكم من عين ساهرة وأخرى جاهدة ، وأخرى باكية ، وكم من عَبْرى مولهة ، وفتاة معذبة — قد أفرح قلبَها الحزنُ ، وأجهد عينها الكمَدُ — قد استبدلتْ بالحلى العُطْلة ، وبالأنس الوحشة ، وبالتكحيل المَرَه[٥] فأصبحت والهة مبهوتة ، وهائمة مجهودة بعد طَرْف ناصع ، وسن ضاحك ، وشكل ساحر ، وبعد أن كانت ناراً تتوقد ، وشعلة تتوهج . . . وما ندرى فى أى الحالين أنت أجمل ، وفى أى المنزلتين أنت أكمل : إذا فرقناك أو إذا جمعناك ، وإذا ذكرنا كلك ، أو إذا تأملنا بعضك ، فأما

---

(١) ماوية : مرآة .
(٢) قبطية : ثياب كانت تصنع بمصر من نسيج الكتان الرفيع .
(٣) الخود : الشابة الجميلة .
(٤) مفرثة : مشقوقة .
(٥) المره : عدم التكحيل وتقرح الجفون .

كفلك فهى التى لم تخلق إلا للتقبيل والتوقيع ، وهى التى يحسن بحسنها كلُّ ما اتصل بها ، ويختال بها كل ما صار فيها ، وكما أصبحنا وما ندرى آلكأس فى يدك أحسن ، أم القلم ، أم الرمح الذى تحمله ، أم المِخْصَرة ، أم العنان الذى تمسكه ، أم السوط الذى تعلقه ؟ وكما أصبحنا وما ندرى أى الأمور المتصلة برأسك أحسن ، وأيها أجمل وأشكل ، آللِّمَّةُ ، أم خطّ اللحية ، أم الإكليل ، أم العصابة ، أم التاج ، أم العمامة ، أم القِناع ، أم القلنسوة ؟ فأما قدمك فهى التى يعلم الجاهل كما يعلم العالم ، ويعلم البعيدُ الأقصى كما يعلم القريب الأدنى ، أنها لم تخلق إلا لمنبر ثغر عظيم أو ركاب طِرْف كريم ، وأما فوك فهو الذى لا ندرى أى الذى تتفوّه به أحسن ، وأى الذى يبدو منه أجمل ، آلحديث ، أم الشعر ، أم الاحتجاج ، أم الأمر والنهى ، أم التعليم والوصف ؟ . . . وقد علمنا أن القمر هو الذى يضرَبُ به الأمثال ، ويشبَّه به أهل الجمال ، وهو مع ذلك يبدو ضئيلا نِضْواً ، ومعوَّجاً شَخْتا[1] ، وأنت أبداً قمر بدر فخم غَمْر ، ثم هو مع ذلك يحترق فى السِّرار[2] ، ويُتشاءَم به فى المحاق ، ويكون نحساً كما يكون سعداً ، ويكون نفعاً ، كما يكون ضرًّا . . . وأنت دائم اليمن ظاهر السعادة ، ثابت الكمال ، شائع النفع ، تكسو من أعراه ، وتكِنّ من أشحبه ، وعلى أنه قد محق حُسْنُه المحاق ، وشأنه الكَلَفَ[3] ، وليس بذى توقد ولا اشتعال ، ولا خالص البياض ، ولا بمتلألئ ، ويعلوه القَيْم ، ويكسوه ظل الأرض ثم لا يعتريه ذلك إلا عند كماله ، وليلة فخره واحتفاله ، وكثيراً ما يعتريه الصغار من بخار البحار ، وأنت ظاهر التمام ، دائم الكمال ، سليم الجوهر ، كريم العنصر ، نارى التوقد ، هوائى الذهن ، دُرِّى اللون ، روحانى البدن ، وعلى أن ضياءه مستعار من الشمس وضياءك عارية عند جميع الخلق . . فكم بين المعير والمستعير ، والمتبيِّن والمتحيِّر ، وبين العالم ومن لا حسَّ فيه ، فلا زالت الأرض بك مشرقة ، والدنيا معمورة ،

---

(١) شختا : ضامراً . نضوا : مهزولا .

(٢) السرار : الليالى التى يختفى فيها القمر فلا يرى .

(٣) الكلف : ما يعترى القمر من حمرة الخسوف . والمحاق : آخر الشهر أو ثلاث ليال من آخره .

ومجالس الخير مأهولة ونسيم الهواء طيباً ، وتراب الأرض عَبِقاً » .

والحق أن الجاحظ بلغ من سخريته بابن عبد الوهاب ما لم يبلغه كاتب ولا شاعر فى اللغة العربية من سخريته بشخص من الأشخاص ، والطريف أنه يصل إلى ذلك لا عن طريق السب والشتم والقذف وإنما عن طريق ما يسوقه من تهكم وسخرية لاذعة بصاحبه ، فإذا هو يحتكم معه إلى نظرية الأوساط اليونانية يستمد منها متناقضاته ، كما يحتكم إلى قبحه وما يضفيه عليه من هذا الحسن الحادث ، ليستخرج كل ما يمكن من مفارقات فيه ، وإنه ليستعين على ذلك بضروب من الجدل والاحتجاج والحوار ، كما يستعين عليه بضروب من السفسطة والمغالطة والمقابلة بين الحقائق بعضها وبعض ، أو المقابلة بينه وبين أشياء أخرى على نحو ما يصنع به فى هذه القطعة من المقابلة بينه وبين القمر هذه المقابلة الساخرة الطريفة التى يعبث فيها به ما شاء له هواه ، وهو عبث يستخرجه من التناقض بين قبحه الحقيقى وحسنه الذى ادعاه له ، كما يستخرجه من قِصَره ، وما ادعاه له من طول وتربيع . ومعنى ذلك أن الجاحظ بنى رسالته على فن المفارقة ، هذا الفن الذى رشحت له نظرية الأوساط اليونانية عنده ، وقد أخذ يضم إلى ذلك ضميمات أخرى من أسئلته الكثيرة حتى تم له سخريته من صاحبه ، وإن هذه الأسئلة لتشغل الجزء الأكبر من رسالته ، وانظرْ إليه يقول :

« يا قَعيد الفلك كيف أمسيت؟ ويا قوة الهَيولا كيف أصبحت؟حدِّثْنى كيف رأيت الطوفان ، ومتى كان سَيْل العَرِم ، ومذكم مات عُوج ؟ ومتى تبلبلت الألسن ؟ وما حبَس غرابَ نوح؟ وكم لبثتم فى السفينة ؟ ومذكم ظهرت الجبال ونضب الماء عن النجف؟ وأى هذه الأودية أقدم : أنهر بلخ أم النيل أم الفرات أم دجلة أم جيحان أم سيحان ؟ . . وخبِّرنى عن هِرْمِس أهو إدريس؟ وعن أرْميا أهو الخضر ؟ وعن يحيى بن زكريا أهو إيليا ؟ وعن ذى القرنين أهو الإسكندر ؟ . . وخبرنى عن قحطان ألِعَابر هو أم لإسماعيل ؟ وعن قضاعة ألمعد ابن عدنان أم لملك من حمير ؟ وما القول فى هاروت وماروت؟ وما عداوة ما بين الديك والغراب ؟ . . . وخبرنى عن بحار نيطَس وعن قُبَيْس وعن الأصم وعن

المظلم وعن جبل الماس وعن قاف وأين كنت عام الجحاف ؟ وأين كان ملك الأزد من ملك الأشكان ؟ وأين كانا من ملك بني ساسان ؟ وأين كان أبرويز من أنوشروان ؟ وخبرني عن الفراعنة أهم من نسل العمالقة ؟ وعن العمالقة أهم من قوم عاد ؟ . . . وخبرني كيف كان أصل الماء في ابتدائه في أول ما أفرغ في إناثه ، أكان بحراً أجاجاً استحال عذباً زُلالاً أم كان زلالاً عذباً استحال بحراً ؟.. وكيف طمع — جُعلت فداك — الدهريُّ في مسألة البيضة والدجاجة مع تقادم ميلادك، ومرور الأشياء على بدَنك وكيف كان بَدْءُ أمر البَدِّ في الهند وعبادة الأصنام في الأمم؟ وخبرني ما عنقاء مُغْرِب وما أبوها وما أمها ؟ وهل خُلقت وحدها ، أم من ذكر وأنثى؟ ولِمَ جعلوها عقيماً وجعلوها أنثى؟ . . . وفيك أمران غريبان وشاهدان بديعان : جوازُ الكون والفساد عليك ، وتعاورُ النقصان والزيادة إياك ، جوهرك فلكي وتركيبك أرضي ، ففيك طول البقاء ، ومعك دليل الفناء ، فأنت علة للمتضاد وسبب للمتنافي . جعلت فداك قد شاهدت الإنس مذ خلقوا، ورأيت الجنَّ قبل أن يحتجبوا . . وشهدت العلل وهي تولد ، والأسباب وهي تصنع . . خبرني ما السحر وما الطلسم ؟ وما صداقة ما بين الخنفساء والعقرب ؟ ولم مُلِّح الحمض ؟ ولم طُوِّقت الحمامة ؟ وما بال السواد يصبغ ولا ينصبغ والبياض ينصبغ ولا يصبغ ؟ وخبرني ما جرى بينك وبين هرمس في طبيعة الفلك وعن سماعك من أفلاطون ، وما دار في ذلك بينك وبين أرسطاليس . . وخبرني أين كان إقليدس من فيثاغورس ؟ وأين تلامذته من تلامذته ؟ ومن صاحب الشطرنج ؟ ومن صاحب كليلة ودمنة ؟ ولولا أنك — جعلت فداك — مسئول في كل زمان ، والغاية في كل دهر لما أفردتك بهذا الكتاب ، ولما أطمعت نفسي في الجواب، ولكنك قد كنت أذنت في مثلها لهِرْمِس ثم لأفلاطون ثم لأرسطاليس ثم أجبت معبداً الجُهني وغَيْلان الدمشقي وعمرو بن عبيد وواصل بن عطاء وإبراهيم بن سيَّار (النظام) وعلى بن خالد الأُسْوَاري ، فتربية كفِّك والناشئ تحت جناحك أحقُّ بذلك وأولى ، وقد كان يجب أن تكون على ذلك أحرص وبه أعْنَى . . وزعم بعض تلاميذك أنك تعلم لم كان الفرس لا طِحال لها ، ولم صار البعير لا مرارة له ، ولم كانت السمكة لا رئة لها . . . ولم قيل أعق من ضبِّ

وأبرُّ من هِرّة، وهما جميعاً يأكلان أولادهما، ولم عال الذئبُ أولاد الضبع إذا قُتلت أو ماتت؟ . ولم نامت الأرنب مفتوحة العينين؟ ولم أكل الذئب صاحبه إذا رأى به دماً ؟ .. ولم زعمتَ أن عمر نوح أطول الأعمار مع قولك : إن جميع الأنبياء قد حذّرت من الدجال وأن الدَّجّال إنسان ؟ ! » .

ويحاول الجاحظ بهذه الأسئلة وأمثالها أن يقمع مراء أحمد بن عبدالوهاب ويظهر جهله وتمويهه ، وهو يخرجها هذا الإخراج الفكه الذى احتال عليه بمناقضاته، وخاصة بما كان من تربيع ابن عبد الوهاب وتدويره، وقبحه وجماله، وما من ريب فى أنه بلغ من ذلك كل ما كان يريد من سخرية بصاحبه. ونحن لا نُبعد إذا جعلنا الجاحظ إمام الهجائين فى العصر العباسى إذ استطاع أن يلعب لعباً واسعاً بما كان من قصر مهجوه وضيق عقله . والطريف أنه أخرج ذلك كله مخرج الجدل والحوار ومسح عليه بالسفسطة والمغالطة ، وهذا اللسان الذى فتقته الفلسفة ، وهذا البيان الذى شحذته الثقافة، وهو يعرض ذلك كله عرض محدث لبق ، ما يزال يخرج من باب إلى باب ومن فكرة إلى فكرة . وهى طريقة عامة فى كتابات الجاحظ بعد مرضه إذ تبدو فى شكل إملاءات ومحاضرات ، وهى لذلك تتصف بالتكرار والترداد والاستطراد كما تتصف بالسمات الأخرى التى تميزه من تقطيع صوتى بديع وتلوين عقلى طريف، وهو ينزلق إلى ذلك كله فى الرسالة التى بين أيدينا — عن طريق فكرة الأوساط فإذا زاد الجسم طولا، أو نقص قصراً ، أو اتسع عرضاً ، أصابته مساوئ الإفراط والتفريط، واستطاع الجاحظ أن يمثل بصاحبه وأن يشوهه ما استطاع من تمثيل وتشويه ، ونراه يعرض ذلك كله فى معارض بيانية ممتازة تجعلنا نؤمن بأنه تفوق فى صنعته على جميع كُتّاب عصره ، إذ كان يؤصلها على التلوين العقلى من طرف، والتلوين الصوتى من طرف آخر ، فإذا أساليبه تنهض بهذه الثروة العقلية الباهرة، وتلك الموسيقى الرصينة الرائعة ، والحق أن الجاحظ استطاع أن يدمج إدماجاً حسناً بين ثقافته وأسلوبه وأن يخرج من ذلك إلى هذه الصنعة الجاحظية البديعة التى تقوم على التجانس بين اللفظ الموسيقى الرشيق ، والمعنى العقلى الدقيق ، تجانساً يمتع العقل والفكر ، كما يمتع الحس والشعور .